محمد محمود أبو الحسن

آدم وشجرة الحب المحرمة

متى أحبَّ آدم لأول مرة؟

Telegram:@mbooks90

دار الرسم بالكلمات

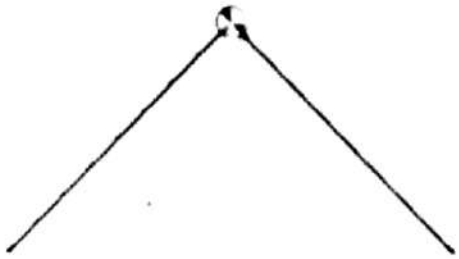

http://elrasm-blkalemat.com	
FB.com/elrasm.blkalemaat	
Instagram.com/elrsmbkalemat	
01061419555	
http://elrasm-blkalemat.com	

عنوان الكتاب:	آدم وشجرة الحب المحرمة
المؤلف:	محمد محمود أبو الحسن.
الطبعة الأولى:	٢٠٢٤.
المراجعة اللغوية والإخراج الداخلي:	Dr.Right
تصميم الغلاف:	حسن العربي
رقم الإيداع:	2023/27696
الترقيم الدولي:	978-977-87149-1-3

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

وأي اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يُعرِّض صاحبه للمُساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

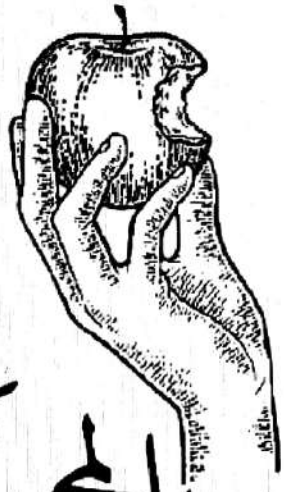

آدم وشجرة الحُبّ المحرَّمة

متى أحبَّ آدم لأول مرة؟

رواية

محمد محمود أبو الحسن
٢٧٠٧٩٠٢٣٣١

لم تكن الحياة، بالنسبة لي، سوى لغز ناقص، يدفعني دفعًا دون إرادة مني للبحث عن حله وإكماله. ولكن قبل أن تفهم كلماتي، قارئي العزيز، عليّ أولًا أن أكشف لك عن شخصي.

أنا آدم، صاحب خمسة وأربعين عامًا فقط، ولكني في الحقيقة عجوز الآن فيما يشبه نبيًا قد عاش ألف عام، ولم يفعل بي ذلك إلا الحُب. لقد حاربتني الحياة ببطء، ولم تتغلب عليّ بأمراض السكري والقلب والضغط، وإنما غلبتني بمرض من نوع خاص من أمراض العصر، مرض أن يكون للشاب عشيرة من الفتيات اللاتي يخدعهن بحبه ليتباهي بهن بين أصحابه، إلا أنني لم أكن كذلك بالضبط، حيث لم يكن لي أبدًا أي أصدقاء، وبذلك يمكن القول أنني لم أحب قط بغرض التباهي، والأدهى من ذلك أنني لم أخدعهن بحبي.. لم أفعل، وأقسم لكم على ذلك بأغلظ الأيمان. بل إنني كنت أتيم بهن صدقًا بكل شغاف قلبي، فلا ألقى من الحب إلا خذلانه ليتركني من بعدها محتارًا، هشًا، ينقصني دومًا أن أشعر بدفئه وسكينته.

Telegram:@mbooks90

حين كنت صغيرًا -وقد كنت أجمل أبناء الحي حينها رغم أذناي الكبيرتان مثل القط- كنت أتودد دائمًا لأقرب فتاة ببراءة يشوبها الخبث. يبدو أنني وُلدت منذ اليوم الأول بتلك القطعة الناقصة. على أية حال، فقد لاحظ والدي سلوكي المشين حينها، والذي كان جيرانه يلومونه عليه. وحدث المصاب الأكبر في يوم من الأيام، تحت بئر سلم الجيران المظلم، وذلك حين تسللت أنا وابنتهم ولثمت ثغرها بأول قبلة في حياتي. ويا للحظ العثر! فقد كان والدها عائدًا من العمل في ذلك الحين، وصوت أنفاسه تتلاحق سريعًا حاملًا كيسًا كبيرًا من الخبز الساخن والذي جعله يتصبب عرقًا. سمع أولًا أصوات تنهداتنا الخفيفة، وحفيف الأحذية التي تعافر تحت البئر، ثم على ما يبدو فإنه قد ظن أننا فئران قادمة لننال من مخزون قمحه، فتجمد مكانه وأنزل حمله، ثم أخذ عصا غليظة وتقدم بها نحونا. لن أنسي مظهره طوال حياتي حين رأى شفتينا الملتصقتين، فقد بُهت وجهه واتسعت عيناه عن آخرهما، وتراجع خطوة للوراء ليلوح بعصاه عاليًا وهو يزعق "يا ابن الكلب، يا قليل الأدب والربايا!".

إلا أنني ولله الحمد فلت من تحت يديه وانطلقت هاربًا كالصاروخ، مخلفًا فردة

حذائي ورائي وعديد القبلات على وجه ابنته المرتعشة والتي انخرطت في البكاء حتى قبل أن يضربها. في اليوم التالي أهلكني والدي ضربًا بخرطوم جوزته العتيقة، حتى احمر كل جسدي، ثم اصطحبني للجيران معتذرًا لهم، وما إن اعتذرت لهم حتى كررت الفعلة مرة ثانيةً، ولكن مع فتاة أخرى.

وذات يوم، استدعاني والدي مناديًا إياي بزعيق عصبي انخلع له قلبي، وذلك بعد مصيبة جديدة كنت قد اقترفتها. جئته وجلًا، لكنه استقبلني، على غير عادته، بوجهٍ وديع، وجه قد أنهكه التعب أو فقدان الأمل ربما من نتيجة جلسة النصح التي على وشك عقدها معي. قدم لي حلوى ووضعها أمامي على الطاولة، وبينما كنت أهم بالتهامها، بدأ في الحديث.

"آدم، أنت فتى لا يمكنه أن يستقيم". قالها هكذا بكل بساطة، حتى نظرت أنا، الطفل ذو الثماني سنوات، إلى الأرض ووجهي يشتعل من الخجل واضعًا الحلوى بمكانها على الطاولة.

استكمل قائلًا: "لقد ماتت أمك حين ولادتك، ويبدو أن أثر ذلك لن ينمحي أبدًا. وكأنه قد كُتب عليك أن تبحث عن أمك في كل فتيات الأرض، ولكنك لن تنال غايتك هكذا أبدًا، يا ولدي. لقد حاولت أن أعوضك، ولكن لا أستطيع فعل شيء حيال هذا.. لأنك ملعون يا آدم، هكذا قالت لي الجنية".

لم أفهم كثيرًا مما قال والدي، لكن كان يكفيني رؤية تعابير وجهه المتخابثة وسيرة الجنية لأرتعب وأنا أرد عليه بشفاه مرتعشة قائلًا: "بابا.. جنية؟!".

وسرعان ما أوضح لي والدي: "اسمعني جيدًا، إنك فتى صغير ولكن بروح كبيرة قادرة على أن تفهم كلامي. لقد جاءتني جنية على إثر صرخات قدومك لهذا العالم، جنية سوداء سواد الفحم، هل لك أن تتخيل شكلها المرعب؟ قالت أنها قادمة من بلاد خضراء، تلهبها الشمس منذ فجر وجودها، وبليلها نجوم متلألئة تسكن بها العفاريت المخيفة، ويحف على ترابها أجمل بنات الأرض. هل تريد معرفة ماذا قالت لي؟".

هززت رأسي أي نعم، ليقترب مني والدي هامسًا بأذني: "قالت أنها ستقطعك إربًا

بعد أن تنخر قلبك إن حاولت اللحاق بإحداهن. ستلعنك، وستزيد أذنيك طولًا حتى تلامسا جدران البيت كلما اقتربت من فتيات المدرسة أو الحارة. هل تلاحظ هذا؟".

وشدني وقوفًا نحو المرآة ليفرجني ويقول وهو يشير لأذني: "إنها لم تكبر لهذا الحجم إلا لفسادك وعبثك مع بنات الناس. أتعدني ألا تفعل ذلك مجددًا؟". تخيلت، على إثر كلامه، أذناي وهما تضيق بهما جدران البيت، ولا أستطيع التحرك بسببهما، فأطلب المساعدة من الناس لحملهما كلما تحركت، فأسرعت أقول وأنا أذرف الدموع "لن أقرب فتاة أبدًا". قلت وما فعلت.

انتهى حديثنا ثم بدأ والدي يرتجف وكأنه أحس بذنب لإخباره لي ذلك الكلام، شاهدته يقفز عن كرسيه بعصبية شديدة ثم دخل غرفته، وأنا أسمع من الخارج صوت بكائه، وفي اليوم التالي انقطعت أنفاسه. مات والدي وتركني وحيدًا بعد أمي، وقد شعرت أنني اقترفت إثمًا عظيمًا بتسببي في موتهما.

على العموم، فقد صدقت نبوءة الجنية، ورحت أبحث في نواحي أرض مصر الخضراء عمن تكملني، وظننت أنني سأجدها. لم يكن بالإمكان أن تفوت بضعة شهور إلا وقلبي يشرع في التفرغ من حب إحداهن مستعدًا لأن يعشق أخرى جديدة. ولكنه مع ذلك، كان يغادر أغلبهن دون عناء، ودون أثر، إلا القليل منهن من استطعن أن يختمن على قلبي بما ملأنه بقليل من الحب وكثير من الحسرة والأسى.

وها هي قصتي تبدأ معكم.

(1)

يشهد الكون بأن عقل الإنسان لا يمكنه تذكر إلا شيئًا واحدًا، يبني عليه بقية عالمه، وكل ما بعد ذلك الشيء الأصيل فهو صوره المتعددة. ولكي تفهم ما أعنيه، فعلينا أن نعود إلى اللحظة الأولى، يوم أن تفتحت عيونك على وجه باهت منهك، يتصبب عرقًا وهو يعتصرك في حضنه، ويغمرك بالقبلات السخية، ثم يمكث بجانبك في ساعاتك الأولى، ولا يرمش له جفن حتى تغمض أنت عينيك أولًا.. تلك هي أمك.

ويمر اليوم الأول ثم الثاني فالثالث، ثم أسبوع فشهر فعام، وتزداد الوجوه التي تراها كل يوم، وعقلك الصغير في حجم ثمرة جوز الهند يجهد نفسه في تذكرها، ولكن كيف له أن يتذكر كل تلك الصور المشوشة المريبة؟ الإجابة بكل بساطة هي أمك. سيتذكر عقلك أباك بأنه ذلك الشخص الذي تستند أمك على كتفه لتنهض، ثم يأخذك هو من حضنها ليقبلك ويهدهدك بدلًا عنها، إنه من يعوض عالمك بعض الوقت، ولكنه ليس كل عالمك في الأخير. بعد ذلك سيتذكر عمتك لأنها أول صوت سمعته يحاور أمك حول أية ملابس عليهم أن يدثروك بها، وسيتذكر رائحة جدتك حين أمالت عليك لتنتشلك من جانبها وتأخذك لتغسلك.

ثم تتسع الدائرة، وبعد أن تتذكر كل ما له علاقة بأمك ستبدأ في تذكر كل ما له علاقة بأبيك وعمتك وجدتك، فتتذكر أولاد عمتك وأعمامك ثم أخوالك ثم أولادهم، ولا تلبث أن تذهب للمدرسة، فتجهد عقلك في تذكر اسم صديقك حتى لا تنساه ثانيةً، وها هو يناديك باسمك لكنك لم تحفظ اسمه بعد، حتى تفتش في ذاكرتك عن شيء تعرفه جيدًا تتذكره به، فتعرف أن نصف اسمه يتشابه مع ابن عمتك، وأما النصف الآخر فستتذكره بسهولة لأنه اسم أبيك، وكل هذا تذكرته لأن له علاقة بأمك!

ولكن هناك أمر مخيف؛ ماذا لو ضاعت كل تلك الأشياء من البداية؟ ماذا لو سقطت ذكرى تلو الأخرى من عقلك؟ ماذا لو لم يعد لك عالم؟ وبمعنى أخر، ماذا لو ضاعت أمك من البداية؟

بالتأكيد إنه لشيء صعب التخيل أن يحرم طفل من أمه في ساعاته الأولى، دون

أن يراها ولا أن تعبث أصابعه الدقيقة بوجهها الرطب، أو أن يشم رائحة جسدها الدافئ، فيتدثر بصدرها، ويشعر بأمانها وحنوها. إنه لمن الصعوبة بمكان أن يحيا ويعيش مثل بقية أقرانه، وبالتأكيد لن يكون طبيعيًا.

وهذا أمر أحسست به منذ ولادتي، وأدركته حين تخطيت الرابعة، ثم ما لبثت أن تأكدت منه يوم دخلت المدرسة. كنت أجلس في ركنِ الفصل منزويًا على نفسي في آخر دكة، حاضنًا للحائط، لأنني أردت دائمًا أن أختفي عن أنظار الجميع، أو بالأحرى أن أختفي كليةً من الحياة، حتى لا يلقاني أحد فينظر لي تلك النظرة المشفقة البائسة على حالي.

"ولدي، أنت يتيم؟ لقد فقدت أمك؟ آه، إنه لشعور صعب!" يقول لي أحدهم، ولا يدري أن معرفته وشفقته الزائفة هذه أشد ألمًا من فقداني لها. إلا أنه هناك دومًا استثناء، أن تستغني عن اهتمام الجميع، ولكن اهتمام أحدهم يغنيك عنهم جميعًا. أن ترغب في الاختفاء عن العالم كله، وفي الوقت ذاته تتوق شوقًا لأن يلقاك هذا الأحدهم.. كانت تلك ليلى، الحب الأول.

أتذكر ليلى دائمًا، بكل ما يمت لها من صلة، وكأنها أمس، فلا يمكننا على كل حال نسيان حبنا الأول البريء، هذا إن كان بريئًا بالنسبة لي.

***

كان شتاء القاهرة قارسًا في تلك السنة إلى حد بعيد على أهلها، حيث كانت تتساقط الثلوج ندفًا بين حين وآخر، ولا يكاد يخلو يوم من عاصفة برد تطقطق العظام، حتى كانت تفزع خادمتنا في الصباح من صوت ارتطام الشبابيك المغلقة. وقد كانت خادمتنا عجوز كئيبة، انتدبها والدي بعد موت أمي لتعتني بي، فلم تزدني بوجودها إلا بؤسًا، ولكنها كانت على ذلك تشكل جزءًا من حياتي لا يمكن الاستغناء عنه. وعلى العموم، فقد كنا كطلاب فرحين بعواصف البرد تلك أيما فرح، لأنه في ذلك الطقس كنا نسهر على لهيب المدفئات، ثم ننام ملتحفين متدفئين في فراشنا حتى الصباح، دون أن يعكر صفو نومنا الاستيقاظ باكرًا للذهاب للمدرسة.

وفي يوم حلمت بأمي، كان حلمًا بائسًا أيقظني من نومي مبكرًا، ولم يكن هناك في البيت سواي أنا والخادمة، التي كانت تغط في نوم عميق على الكنبة، فتسللت من ورائها وذهبت للمدرسة على غير العادة، وهناك رأيتها صدفة لأول مرة. كانت ليلى حينها تكبرني بعام، ذات بشرة بيضاء رقيقة وبراقة، وترتدي زي المدرسة المكون من مريلة بنية، وشراب أبيض مزركش بالورود، مع جزمة سوداء في حجم أرجل القطط الصغيرة، مزينة بشريط وردي لامع، بجانب شعر أصفر طويل الجديلات، تتخلله بعض الشعيرات الحرة التي تتطاير على جبهتها الناصعة.

لم أفكر في تقبيلها حين رأيتها لأول مرة، ولعلي نسيتها، حتى حدث ما هو أجمل من ذلك. رسبت ليلى في ذلك العام، وللصدفة الجميلة فقد طلبت الانضمام لفصلي في العام التالي، لأنه كان بفصلها ولد يضايقها. أول لقاء حقيقي بيننا كان خارج هذا العالم، حين التقت أعيننا فجأة وأنا أتناول الطعام وقتها، فثبتت عيناي عليها لفترة طويلة وهي تدخل الفصل لأول مرة بنظرة شاردة، حتى قضمت إصبعي بدلًا من السندويتش المنتهي، فصرخت ألمًا بينما وقفت هي تضحك عليّ، ثم التفتُّ بعدها إلى كيس طعامي لأجده فارغًا.

أمسكت كيسي وأنا أضعه بإحباط في حقيبتي، بينما تبقبق بطني من الجوع. ودون كلام، وجدت ليلى تتقدم نحوي، وفي يدها كيسها الورقي المنتفخ، وتناولني منه أكبر السندويتشات، فأخذته بابتسامة امتنان وأنا أفتحه لأستكشف ما بداخله، لقد كان محشوًا بمربى الجزر التي أحبها. وجدتها لحظة مناسبة لأن أفسح لها مجالًا للجلوس بجانبي، وكانت تلك أول مرة أسمح لأحدهم أن يشاركني وحدتي في الدكة، أو بالأحرى أن قبل أحدهم مشاركتي إياها. وحين فعلت، ضحكت ليلى ضحكة لا يمكنني نسيانها إلى الآن، كاشفة عن أسنانها التي سقط معظمها ولم يتبقَّ في صفها العلوي إلا القليل منها، مما تسبب في لثغة خفيفة في كلامها، بدت لي حينها في غاية الرقة والفتنة.

منذ ذلك الحين، وأنا وليلى لا نتبع قواعد الفصل، حيث كان لا يشمح بجلوس الفتيات بجانب الأولاد، ولكن وكأن المدرسة أرادت تخليص ضميرها من عبء

وحدتي الدائمة في الدكة، فمر الأمر دون مشكلة، ولم تخلف ليلى عادتها، فكانت تجلب لي الطعام كل يوم، ولا تجعلني أتوقف عن التهامه حتى تمتلئ معدتي. وسأقول ما قد يبدو غريبًا، ولكن ليلى بدت لي كأمي في ذلك الوقت، لقد ملأت نصفي الناقص بالكامل، وأشعرتني لأول مرة بعطاء الأمومة الدافئ؛ أن يقدم لك أحدهم أمرًا ولا ينتظر منك أي مقابل سوى أن تُقبله.

ولأن الفكرة لم تغادر أحلامي، فقد تخيلت ليلى فجأة وقد امتلأ جسدها، وفرع طولها، واستدار نهديها وفخذيها، وأصبحنا بين ليلة وضحاها زوجين نتشارك الطعام والعطاء والفراش. كانت هذه ألذ فكرة خطرت على بالي، وقد تخيلت ليلى حيث نضجت ونحت هيئتها كتمثال لأفروديت. آه، يا أصدقائي! ما ألذ حب الطفولة البريء، الخالي من كل التصنعات الكاذبة، والمليء ببساطة أحلامنا ونواقصنا!

اكتمل الأمر لما توطدت علاقتنا خلال السنة الدراسية التالية، ونحن لا زلنا نتشارك المقعد والطعام، وفي يوم وصلت إلى الفصل ووجدت دكتنا فارغة من ليلى التي تعودت أن تسبقني الوصول، جلست في انتظارها وأنا أتململ في مقعدي، حتى رأيت حافة ورقية تتدلى من الدرج الخشبي، ففتحته ووجدت به رسالة قد مخضها العطر.. عطر ليلي. وكانت هذه كلماتها البسيطة، لن أكذب عليكم، وسأنقلها كما كتبتها تقريبًا، ببراءة ألفاظها وغياب فواصلها، عدا أنني لن أستطيع أن أطبع لكم قبلات شفتيها الرقيقة التي غلفت الرسالة.

"آدم حبيبي.. حلم صباحي الدافئ

لقد تدبرت أمر لقاءنا بساحة الملعب لوحدنا بعد الفسحة بعيدًا عن ضجيج العيال والتراب وسأجلب لك أيضًا آيس كريم وعندي لك مفاجآة".

أعدت قراءة الرسالة مجددًا وأنا أجهد نفسي لأحدد أين سيكون مكان اللقاء بالضبط، ولكني لم أقدر، فقررت أن أتجول اليوم بالساحة بعد الفسحة، لعلها تلقاني هي في مكان ما هنا أو هناك.

وبعدما انتهت فصولي، اندفع التلاميذ للخروج، وعندما فرغ كل الفصل، قمت

متباطئًا للخروج، وبينما كنت أهبط السلالم، سمعت صوت همس يأتي من الأعلى، تبعه صوت أقدام تدب على الأرض برفق، ثم هتف أحدهم باسمي دون أن يكمله. صعدت مجددًا، لأجد ليلى جالسة على طرف السلم، تختلس النظر وهي مختبئة، وما أن رأتني حتى ابتسمت ابتسامة فرح خبيثة، ثم شدتني من يدي سريعًا، ونحن نركض في الطرقة بأسرع ما لدينا وأيدينا تتدفأ في أيدي بعض، ثم شدت على أناملي بشدة، وبدأت تقتادني لفصل فارغ.

- "ليلي، الفسحة ستنتهي بعد قليل، ويمكن لأحد أن يرانا!"

- "لا تقلق، سنقوم سريعًا. لقد جهزت لك مفاجأة".

والتفتت للخارج، متفحصة الطريق، ثم قامت وأغلقت علينا الفصل، وشدتني مجددًا، وهي تجلسني أسفل آخر دكة. اختبأنا حينها وقد شعر كل منا برعشة طمأنينة دافئة، ونحن جالسون دون خوف من أن يرانا أحد. رفعت ليلي كتفيها، وعصرت أناملها، بينما ارتفع حاجبيها وقالت خجلة وقد توردت وجنتيها: "آدم".

هززت لها رأسي لتتابع، ولكنها توقفت عن الحديث وأخرجت طعامًا من كيسها، ثم قالت: "أنا أحبك". ومدت يدها لتناولني سندويتشًا، ثم شدت أصابعها الدقيقة الصغيرة مجددًا على كف يدي، وتمايلت ناحيتي لتطبع على خدي قبلة من خفتها ارتعشت، فبادلتها بالمثل وقد تماديت لأطبع قبلة أخرى على شفتيها. ولكن أقسم لكم، يا أعزائي، أن هذه المرة كانت مختلفة، لم أذق في حياتي شيئًا في هذا العالم ألذ من شفاه ليلى، وإن ذكراها وإن زال العالم كله، فلا تزل. ومع أن وجنتيها لم تحمرا هذه المرة، إلا أنها بدت متوترة وهي تفرك يديها وقدميها مرة أخرى، وتمتمت وهي ناظرة للأرض "عندي لك شيء آخر. آدم..سنسكن في بيت واحد، ونتزوج اليوم".

"ليلى..ليلى". وبدأت أسمع صوت دبدبة أقدام، ولكن ليلى شوشتني، وجمدت عيناي حين أخرجت خاتمين من الورق، ملونين باللون الأصفر حتى يبدوا كالذهب.

- "سنتزوج آدم.."

وأعطت لي الخاتمين، فألبستها واحدًا بشكلٍ عشوائي، وأخذت هي يدي لتلبسني الآخر، وتوقفت برهة متأملة يدي وسألت "أي إصبع ينبغي عليّ أن أضعه لك فيه؟". أشرت لأصغر أصابع يدي اليمني ولا أعلم إن كان هذا صحيحًا أم لا، فوضعته فيه وهي تبتسم، ولكن إصبعي كان كبيرًا كفاية لأن يسقط وينقطع الخاتم. تبدل وجه ليلي، واعتلاه بدلًا من النظرات المتلألئة نظرات غضب، وقد انهار ركني فمها ومعه تهدل خديها، ثم أفحمت نفسها في بكاء صامت مرير، وقد تغضنت جبهتها.

"ليلى..ليلى". صحت بها ثانية وأنا مرعوب بينما أسمع صوت الأقدام والهمهمات يزداد ضجيجًا وقربًا، ولكن ليلى لم تتوقف عن بكائها.

"ليلى، لقد انتهت الفسحة!". صرخت فزعًا، فنظرت إليّ بدورها برعب شديد، وحاولت القيام، فاصطدمت رأسها بحافة الدكة الحديدية لتتأوه وتنخرط في بكاء أعمق، أما عيوني فقد تحولت فجأة إلى وعاء مملوء بالمياه المالحة، التي انهمرت سخية، وأنا أفكر في ليلى، وماذا سيفعلون بنا إن وجدونا. إن هولاء الأولاد شريرين، وقد تعلموا الشر الخالص الذي يتقاطر من أولياءهم، ولذلك فأنا لست شريرًا، لأنه ليس لي أحد. صدقًا، إن أول ما يتعلمه الإنسان من والديه هو الشر، والضحك على مصائب وأحزان الآخرين. لقد تعلموا منهم أن ينهوا أحلام البؤساء مثلي، ويجرونهم إلى أحزان عميقة، لن ينسوها طوال حياتهم.

هذا ما تعلمته وأنا جالس تحت الدكة أرتعش، بينما انفتح باب الفصل بشدة وقد صفعه أحد التلاميذ، ليتماوج البقية للداخل ويصطفون بمقاعدهم، وبقيت أنا مستكينًا حتى جاء أحدهم وجلس دون أن ينتبه لوجودي، وقد نسيت نفسي وخفت على ليلي، فرحت أغلق عيني متمنيًا لو تنتهي هذه المصيبة على خير. ولكن فجأة ركلني أحدهم وجرجرني خارج المقعد وهو يصيح: "ابن اللعينة هذا! كيف جئت إلى هنا؟ ماذا كنت تفعل؟ أسرقت طعامي؟".

وفتش كل التلاميذ أغراضهم، ثم اندفعوا تجاهي ليتجمع الأطفال حولي وقد صاح أحدهم: "أنا أعرف هذا! إن أباه وأمه قد ذهباه في طائرة للسماء!".

وضحك ضحكة ساخرة، انخرط معها كل الأطفال في ضحك عميق، كاد معه قلبي

أن ينفطر حقيقةً، وأنا أحس برطوبة دافئة بين سيقاني، ومياه تغرق المكان، ومع هذا كله لم يكن في بالي غير ليلى.

قمت مندفعًا، وقد انقبض وجهي، وأسناني تصطك غضبًا وخوفًا، ورحت ألوح بقبضتي في وجوههم، وأركل بقدمي في كل الاتجاهات حتى سقطت عديد المرات وقمت، إلى أن لكمني طفل أسمر ضخم الجسد، وطرحني أرضًا وهو يسبني بأمي. رحت أتخبط ألمًا يمينًا ويسارًا على أرضية الفصل المغمورة بالمياه، محاولًا الوقوف مجددًا، ولكني لم أستطع، فانفجعت روحي وشرعت أبكي، وراح المخاط يسيل من أنفي مختلطًا بالدم دون أن أقوى على الحركة. لقد كانت لحظة عجز تامة، تعجز معها كل كلمات البالغين المنمقة والمنافقة عن وصفها!

فجأة، عم السكوت الفصل، وأحسست بيد أحدهم تلمسني وهو يزعق في الأطفال بالابتعاد. لقد وصل المعلم أخيرًا. ذهب بي إلي طبيبة المدرسة التي لم يكن لها وظيفة سوى تحويل الأطفال إلى مستشفى صغير قذر، وأنا مع كل ذلك لا أفكر إلا في ليلى. أخذتني الخادمة للبيت بعدما علمت ما حدث، وقد مكثت في فراشي هامدًا لأسبوعين، وأنا أنام كل ليلة وأحلم بمصير ليلى المجهول، حتى رجعت أخيرًا للمدرسة.

تعمدت أن أصل متأخرًا ذلك اليوم، حتى أضمن أن تكون هناك، وفور دخولي للفصل وجدت جسدًا ينبطح أسفل المقعد ليلتقط شيئًا ويقوم مرة ثانيةً. بوجهٍ باهت وخائف رأيت ليلى، وقد ازداد خوفها وسعادتها في آنٍ واحد فور رؤيتها لي. تقدمت ناحيتها وجلست بمحاذاتها في صمت، مستمعين لحديث المعلم، حتى انتهت الحصة. ومع ذلك ظللنا صامتين طوال النهار، وكذلك صمتنا لليوم التالي. علمت من ليلي فيما بعد أنها لم تكن هناك حين هجم عليّ الأطفال الشريرون، وأنها أنقذت نفسها، وقفزت من النافذة مما تسبب في شرخ معصمها.

- "متأكدة يا ليلى أنكِ لم تكوني هناك؟ هؤلاء الأطفال المتوحشون.. ليلى!"

هزت رأسها مؤكدة لي، ولكن دون أن تنطق. ومع ذلك فرحت كثيرًا، حيث بذلك لن يكون هناك تندر للأطفال منا، بل سأتحمله أنا وحيدًا، لأنني من كنت هناك لوحدي،

وأنا من بال على نفسه خوفًا ورعبًا.

في الأيام التالية، تغيرت معاملة ليلى معي، لم تعد تعطيني طعامًا، ولم تعد تثرثر معي، أو تشد على يدي من حين لآخر في غفلة من المعلمين، أحسست وكأنها تتحاشاني، وكأنها انكسرت، رغم أنه من المفترض أن أكون أنا! بالغنا في الأمر بعدها، واحتدمت الأمور، وقد أخذت هي قلمي وقسمت المقعد لنصفين، بخط فاصل سميك، أشد وأكثر حدة من حدود الدول، حيث لا يمكن لأحد منا أن يتخطاه، ولا يُكلم أي منا الآخر كذلك. وإذا أراد أي منا السؤال عن شيء، فليفعل ذلك بالإشارات فقط. باختصار توتر الأمر بيننا حتى اشتدت المجافاة والغلظة، وكأننا زوجين قد خان أحدهما الآخر، وكل منهما يعلم ذلك، ولكن لا أحد منهما يجرؤ على اتهام الآخر، ولا هما كذلك يقويان على البوح بذنبهما الشنيع.

جاء يوم الثلاثاء الكئيب، وفي منتصفه أعطانا المعلم اختبارًا في مادة الحساب، كان مفاجئًا بالنسبة لي، رغم أن المعلم نبّه قبلها بأسبوعين، إلا أنني نسيته تمامًا بسبب تشوشي الفترة السابقة. لم أعلم كيف أتصرف، حتى وجدت فجأة ورقة الاختبار في يدي، أنظر إليها مرعوبًا وشفاهي فاغرة، وكل رمز رياضي فيها يمد لي لسانه، دون أن أستطيع فهم ما يعنيه. نظرت لليلى بجانبي -التي كانت قد بدأت الحل- مستنجدًا، ولكنها لم تلقِ لي بالًا متعمدة، لم أيأس، فمدت قدمي نحوها لأهزها بعنف، ولكنها تجاهلتني مجددًا.

سلم كل الأطفال ورقتهم المليئة بالحبر، أما ورقتي فقد سلمتها كما أخذتها، ولم يكلف ذلك المعلم عناء التصحيح ليدرك فشلي، فكنت أول ضحاياه. وفجأة، تحول الفصل لمعسكر تعذيب شديد الحراسة، حيث صُفع الباب، وأُغلق من الداخل، ووقف عليه طفلان ضخمي الجثة، تحسبًا لأي محاولة هروب. كما أُغلقت النوافذ، وعتم الفصل نتيجة لذلك، ولم يعد به أي شعاع ضوء، جالت عيناي أمامي وخلفي مرعوبًا، باحثًا عن أي ثغرة للهرب، ولكن بئسًا! لقد أُغلق كل شيء، ولم يعد هنالك أي مفر.

كان هناك سببًا آخر شديد الأهمية لإغلاق الأبواب والنوافذ، فلم يكن العذر الوحيد هو منع أي محاولة للهرب، بل هناك سبب أهم، وهو تقليل صدى أصوات الصراخ

والأنين إلى أقل حد، وهذا ليس لأن هناك من سيعاقب المعلم إن سمعنا نصرخ، بل لا أحد سيهتم، ولكن السبب البالغ الأهمية هو أنه إن غوقبنا، فليس للتلاميذ في الفصول الأخرى ذنب ليسمعونا نتألم ونصرخ، فعليهم أن يتلقوا دروسهم في هدوء، دون أن يزعجهم نحيب البائسين أمثالي.. أي عدل بشري هذا الذي تعلمناه في مدارسنا! مت، ولكن لا شأن للآخرين بأن يستنشقوا رائحتك المتعفنة.

تناثرت عصا المعلم الجلدية الغليظة على أطراف الأصابع محدثةً اصطكاكًا أليمًا للمفاصل في عز البرد، حتى كادت أطرافي تشل، والدمع يسيل غزيرًا من عيني وأنا أنتحب، ومعي الكثير من التلاميذ المنتحبين، حتى بدا الأمر أشبه بأوركسترا بكاء منتظم، يحدث لحنًا مقززًا، ولكنه في الآن ذاته مرضيًا لنفس المعلم، الذي أنهى مهمته وخرج سعيدًا من الفصل. وبرغم العذاب الذي ألمّ بي، فلا تلوموا ليلى رجاءً. أعني أنها بالتأكيد لو علمت ما سيحل بي لكانت ساعدتني، وذلك ما دلت عليه دموعها حزنًا على مصيري البائس. وقد أعربت عن تلك النفس الطفولية البريئة الطيبة، الخالية من كل دنس دنيوي، حين جائتني صباح اليوم التالي، وقد عادت إليّ صافية من جديد. جاءت وأزالت الخط الفاصل، ثم مسحت أثره بقلم التصحيح، وعدنا كما كنا؛ نأكل معًا، ونمسك أيدي بعضنا خلسةً، ولا أتركها تصمت مهما كان الأمر.

كنا نتحدث في أمور تافهة جدًا ومستحيلة التحقق مثل: هل تستطيع الدول العربية الاتحاد يومًا وهزيمة العدو؟ وهل يمكن أن نوقف القمر عن السير ورائنا ومراقبتنا لكي يسرب معلوماتنا وأخبارنا إلى الله، بعد أن تنتهي الشمس من مهمة التجسس تلك في الصباح؟

وكان رد ليلى على ذلك مقنعًا لي، إلى أقصى حد: "إن استطعنا أن نوقف القمر عن مراقبتنا، فسيوجد الناس بالتأكيد، وهذا أسوأ، لأنهم سيكذبون على الله بشأننا".

أنهينا حوارنا يومها، وفي منتصف النهار هطلت الأمطار بشدة، بقطرات مثلجة ومتسارعة، فانتهى اليوم الدراسي، وغادر كل الأطفال المدرسة، وحتى المعلمون لم يبقَ منهم أحد. الكل عاد لبيته يتدفأ في فراشه، بينما شيطاني أخبرني ألا أغادر،

وأن أنتهز الفرصة، لنجلس أنا وليلى مجددًا لوحدنا في الساحة. وهذا ما حدث، فقد اختبأنا معًا حتى انصرف الجميع ثم نزلنا للساحة التي امتلأت بالمياه، حتى أغرقت ركبتينا، وتسللنا معًا لغرفة المخزونات المفتوحة، ونحن نصطك من البرد والخوف والرغبة في المجهول. كانت الغرفة غارقة في ظلام دامس، فقمت لأفتش في صناديق الغرفة الكرتونية، وأخذت شمعة لأشعلها، وعلى ضوئها جلسنا معًا، نتأمل من الباب المفتوح الأمطار وهي يبتلعها الضباب، والبرد يحاصرنا من كل مكان، ومع ذلك كان إحساسنا بالغ الدفء، مثل بقعة الشمس الدافئة في غمرة البرد والصقيع.

بعد ذلك تحدثنا دون أن نفعل شيئًا آخر، حتى ملت على خد ليلي محاولًا تقبيله بكل براءة، ولكنها صدتني بعنف مفاجئ، وصرخت بوجهي مقنعة إياي أن التقبيل حرام، وخطأ جسيم قد يكلفنا الكثير، حتى وإن كان من الخد.

- "ستكبر بطني هذه مثل البالون بكائن غريب، وعندما أضعه فلن تعترف به! لا تقبيل إذًا حتى تأتي وتكلم بابا".

لا بد أن دراسة العلوم في سنٍ متقدمة كان سيؤدي لإزالة هذا اللغط.

- "من أين أتيتِ بهذا الحديث؟".

سألت ساخرًا. فأشاحت بنظرها عني، وزفرت وتحدثت بعصبية وضفائرها تتطاير: "لقد رأيته في تمثيلية، لا يمكنك الإنكار أن هذا يحدث. إنهم يتألمون بشدة وهم يضعونه". وتقلص وجهها تعبيرًا عن المعاناة.

"أجل، أجل. لقد رأيت ذلك.. ولكن...". وتمايلت عليها مجددًا، ولكن هذا المرة لم يكن لأجل تقبيلها، بل كنت أريد فقط أن أمسك يدها مثلما تفعل هي لتطمئني، ولكنها ارتعبت، وابتعدت عني، ووقفت غاضبة أمامي وقد نفد صبرها.

- "اجلسي.. لقد كنت..."

ولم تتركني أكمل كلامي، فشعرت بيد باردة تلطمني على خدي، مثل الأفلام بالضبط. وكذلك أيضًا فعلت أنا مثل الأفلام، ولم أستطع توضيح نواياي الطيبة، فزاد الوضع تعقيدًا، وصمت كلانا ناظرين لبعضنا نظرات صمت مشتعلة، وغامضة، ومليئة

بالدموع المحبوسة.

وقفت قبالتها، وأذناي تتحركان من التشنج، وحين حاولت الاقتراب منها زفرت ليلى في الهواء تجاه الشموع، حتى انطفأ لهيبها وغرقت الغرفة في الظلام، وركضت هي مندفعة للخارج، وصوت بقبقة مياه الأمطار تحت أقدامها يصدر عاليًا.

(2)

بعد تلك الحادثة الغامضة وملتبسة المشاعر، لم أرَ ليلى أبدًا، ليس لأنها اختفت، بل لأنها أخبرت والديها بما حدث. وقد اشتكيا بدورهما للمدرسة، ولم تمضِ سوى بضعة أيام حتى فُصلت، فكان هذا هو سبب سفري، لأعيش مغامرة أخرى، أحاول معها الالتقاء بنصفي الآخر، وقد بدا أن رغبتي لذلك ستتضاءل مع الوقت، لكنها لم تكن كذلك! آه، أي رغبة سامية تجعلني أعيش ما عشت، وألقى ما لقيت من مآسٍ وفرح وأحلام، لم تكن موجودة إلا لتعذيبي!

واسمحوا لي أن أُحدثكم ببساطة، إنني معقد. وإن أرجعت حالتي لهؤلاء المسمين بالأطباء النفسيين فسيرجعون كل شيء إلى فقداني لأمي، وأنني لا أبحث إلا عن إشباع رغباتي، ولم يعلمني أحد ماهية الواقع بعد.. إلخ إلخ. وإن هذا صحيح، حتى وإن لم أفهم نصف كلامهم إلا أنه بالطبع صحيح، ولكن صدقًا، فإن هذه الرغبة لم تكن هي محركي.

إن الألباب لا زالت تتخبط في محاولة فهم معنى الرغبة المُسماة بالحب، واسمحوا لي أن أتغاضى عن كل معانيه السامية، التي صورها لنا أدباؤنا وفلاسفتنا وشعرائنا بسذاجة، اسمحوا لي أن أتحدث عن حبي الذي لا يملؤه سوى الأحلام والرغبة الجارفة في معرفة ذاتي. ألم يخطر ببالنا أننا نحب ما نتطلع أن نكونه؟ بالتأكيد فعلنا، أي إنسان ذكي سيستغرق دقيقة لفعل هذا، أما ما عدا ذلك فسيبذل بعض الجهد، ولكنه في الأخير عندما ينظر لأحبائه سيجدهم تمامًا على الصورة التي يريدها أن تكون لنفسه، ما زال المعنى بعد شاعري، ها؟ على كل، فإن أشد معاني الحب مادية وغباوة سيكون شاعريًا أيضًا، فلنحب إذًا دون فلسفة، أيها السادة. لنحب فقط.. دون فلسفة. وباختصار فإني أحببت ما أردت أن أكون عليه.. وتلك هي مليحة!

***

هربت من فضيحة ليلى مسافرًا أنا وخادمتي إلى بلدة قاصية في ريف مصر،

حيث موطن أبي، وقد نزلنا في بيت العائلة الفسيح، والمشيد من الطوب الأحمر العاري إلا من بعض خربشات ورسومات الأطفال العشوائية عليه، ومُلحق بالبيت زريبة البهائم، وفسحة واسعة للفرن البلدي والخردوات والحاجيات القديمة، كان البيت مسكونًا بسبعة أسر متعاونة رجالًا ومتناحرة نسوةً، كما هو الحال في كل بلاد الله.

استقبلتني الوجوه متجهمة، ودون أن نكلف العائلة الشيء الكثير، أمرت العمة الكبري من وسط عشر عمات، وحاكمة البيت باختصار، أن أقعد في غرفة ملاصقة لها، ويتم على إثر ذلك طرد الخادمة لأنه ليس لي حاجة بها بعد الآن، إلا أنني بعناد قاهري فاق عنادها الريفي، نجحت في أن أبقي العجوز البليدة معي، رغم علم الله أني لا أجد سببًا لتمسكي بها سوى تعودي عليها.

وقد جرت العادة في قرى الريف على النوم مبكرًا، فحاولت فعل مثلما يفعلون، إلا أن رائحة البهائم ومخلفاتها كانت تنبعث شديدة مما كان يضنيني ويزكم أنفي ويضطرني لدفن رأسي في الوسادة، ولكن الوقت يُخلف العادة فاعتدت، وكنت أخلد للفراش قبل أن تدق الساعة التاسعة، وقد فرحوا لذلك، فعمدت إلى خداع ماكر لم أكن أقصده حينها، لكني أدركته فيما بعد، وهو أنه ما التزمت بالنوم باكرًا والصلاة والعبادة حينها إلا لنيل رضاهم، حتى إذا تحقق ما أردت انصرفت عنها، بل وارتدت للنقيض تمامًا.

ففور أن بلغت سن المراهقة صرت فردًا آخر، غدوت طائشًا وجامحًا، أتسكع اليوم بطوله دون الذهاب للمدرسة، وأدخن السجائر الفرط الرديئة مع بعض الصحبة، ثم نذهب للسباحة في ترعة البلدة وقد سطعت علينا أشعة الشمس مدفئة الأجساد المرتعشة، ومن بعد ذلك فقد كان هناك أمرًا بالغ المتعة لا يفوتنا يومًا دون فعله، وهو نصب الكمائن للدبابير الملونة. كانت الدبابير تقف ساكنة فوق الأحبال وأغصان الأشجار النامية على ضفاف الترعة، ولإمساكها كان يتعين علينا أن نسير ناحيتها بهدوء شديد على أطراف الأصابع، متجنبين زاوية رؤيتها قدر الإمكان. ومن ثمَّ، وفي اللحظة المناسبة فقط، والتي إن استبقناها أو تخلفنا عنها فسوف يجفل الدبور

ويفر مبتعدًا، في تلك اللحظة كنا ننقض عليها ممسكين بها برفق من أجنحتها الملونة الشفافة الرقيقة حتى لا تتمزق. وفور أن ننجح كنا نتصايح ونتقافز في أماكننا فرحًا، ثم نعاود الكرة مرة بعد الأخرى حتى أعود للبيت وقد ملأت برطمانًا من هذه الحشرات الجميلة، فأطلق سراحها هنيهة وألتقط واحدة منها لأذيقها عذاب لم يكن يتبين لي حينها سوى في هيئة لذة عميقة. كان يبدأ العذاب حين ألفُّ خيطًا حول جناحيها وأربطهما معًا، ثم أصعد لأعلى البيت وأدلي الخيط في بهو المنزل الواسع والدبور المسكين يحاول بكل طاقته أن يفلت لكنه لا يمنحني بمحاولته البائسة تلك سوى مزيدًا من المتعة والمرح لأمعن في أرجحته من ناحية إلى أخرى ليتفرج صبية البيت في جذل. وهووه! حينها ينقطع الجناح الرقيق للدبور ويسقط من فوره على الأرضية وهو يتخبط محاولًا الحركة والهروب بشكل يائس، لكن بئس الأمر، لقد انتهى أمره، وما هي إلا ساعات معدودة حتى يموت مخلفًا وراءه جسده المنكمش.

وعلى العموم فقد دفعت مشاكساتي العديدة حينها، وطيش سلوكي، بالإضافة إلى إهمالي للدراسة، دفع كل ذلك بعائلة والدي إلى أن يجبرونني على ترك الدراسة، ويتخلون عن مصاريفي، وحينها تُركت وحيدًا للبحث عن عمل أقيم به أودي وأود خادمتي في هذا البيت.

حاولت في البداية الاشتغال في عمل ذهني، مستغلًا قدرتي في القراءة والكتابة بين أوساط القرية الأمية، فانتقاني كاتب العمدة لأعمل كمساعد له في جوابات الحكومة والصرافة، لكن ما لبث أن أشتكي من بلادتي ولم يطق صبرًا فطردني من العمل. أدركت بعدها أين تكمن قدرتي، لقد كان ذلك في العمل البدني المتوحش، الذي لا يكل ولا يمل، وبذا فقد اتفقت مع العائلة على أنني سوف أسخر لهم خدماتي لكل الأعمال التي تتطلب قوة جسمانية مقابل قدر قليل من المال السائب وسكن وطعام يكفي لخادمتي، وأما أنا فقد كان عليّ أن أدبر احتياجاتي بذلك المال القليل.

***

في منتصف القرية كانت تقع مطحنة الدقيق بخشبها المعفر البالي، شامخةً برؤوسها الحديدية المدببة بين البيوت الواطئة حولها، عدا بيت مالكها الشامخ

كذلك. وقد كان المالك رجلًا في منتصف الخمسينات، ذو شأن ومكانة عاليتين في القرية؛ شأن أورثه إياه والده الذي كان عمدةً للبلدة فيما سبق، ومكانة حاول اكتسابها بتلك الأبهة المصطنعة التي كان دائمًا ما يتفاخر بها، فقد كان عظيم الاعتناء بمظهره، وكان مظهره ذاك واحدًا لا يتغير حتى لتظن أنه وُلد به. فكان يرتدي بذلة كحلية رخيصة من القطن، من فوق صديرية قطيفة يتدلى من جيبها سلسلة ساعته الفضية، ولا تكتمل أناقته إلا بجزمته البوز اللامعة. وأما وجهه الرفيع فكان أملسًا لا يشوبه شعر سوى شارب مرسوم بالموس بعناية بالغة، وكان شعره بدوره أسود مضمخ بالكريمات والبلسم وينفرق بصدع عظيم في جانب الرأس. ولهذا المظهر فقد كان أهالي القرية يدعونه بلطفي بك رغم اختفاء الألقاب منذ فترة ليست بالقليلة، والأرجح أنهم فعلوا ذلك كنوع من التندر والسخرية المشوبة بالتملق.

وفي أحد الأيام، بعثتني العمة بشوال من حبوب القمح لأطحنه، فدخلت المكان المكسو بغبار الدقيق الأبيض كبياض ندف الثلج، كانت الجلبة والصراخ وأصوات أزيز ماكينات الطحن تضج بالمكان، وتهتز فوهات الآلات بالدقيق المطحون، ومن خلفه النسوة يجمعنه في أكياسهن القماشية، ثم يحملنه على الحمير والبغال، ليأتي غيرهن لابثات وراء الفوهات. دخلت وعلى كتفي الشوال الضخم، الذي تعجب سكان القرية أنني حملته وحدي كل هذه المسافة دون وضوح أمارات التعب عليّ، حركت عيني تجاههم متفاخرًا، ثم أنزلت الشوال على فخذي بحركة مسرحية تحمل الكثير من المهارة والقوة، ورفعته مجددًا لأعلى فوهة الطحن. وأظن في أثناء ذلك أن أحدهم كان يسلط عينه الداهشة عليّ، بينما عضلاتي تبرز بالعرق واللمعان، أدركت ذلك بطرف عيني، ولففت رأسي تجاهه أو بالأحرى تجاهها، ولكنها أشاحت برأسها للناحية الأخرى مسرعة، وغطت جلبابها المتطاير بخمارها الكحلي، ثم استدارت ورجعت لمكانها توجه أحد العمال، وبعد ذلك رأيتها تلج البيت الشامخ، ولم أرها في المكان لفترة.

ولفضول متغلغل يعتمر في صدري، أنهيت حاجتي ولكني ظللت بالمكان لوقت منتظرًا عودتها بفارغ الصبر، وما أعلم رغبة جذبتني إليها حينذاك سوى جهلي بها، ولأنني أردت معرفة من تكون وفي ذات الوقت خشيت السؤال عنها حتى لا أتعرض

للمشكلات والأقاويل ونميمة أهالي القرية. وأمضيت في انتظاري ساعتين أراقب مدخل المطحنة حتى لمحت خمارها يتطاير مجددًا، وهي تتوغل للداخل وتهمس للطفي بك بشيءٍ ما، فرأيته يصعد معها للأعلى ثم تنزل وحدها بعد برهة وتدير العمال بنفسها.

انتهزت الفرصة ودخلت والشوال على ظهري، وأنزلته بذات الحركة الهزلية، ثم تحركت لركن المطحنة واستندت على أحد دواليبها متطلعًا إليها. لم أكن أعرف اسمها بعد، ولم أكن أعرف عنها أي شيء في الواقع وإنما بنظرة واحدة إلى عينيها الملائكية ظننت أنني عرفت كل أحداث الكون السحيق، وأنني عرفتها منذ ذلك الزمان القديم. اقتربت منها ولكنها بحركة جنية اختفت من أمام ناظري، ولم أرها سوى وهي تخرج من المكان وتصعد للأعلى من جديد، ويهبط لطفي بك مستأنفًا إدارته للمكان.

استدرت وهممت بالخروج حتى سمعت صوتًا ينادي: "أنت يا..." فالتفت ووجدت البك يقصدني بالحديث. نزل درجات سلم المطحنة الخشبية بتؤدة متوجهًا نحوي بسؤال متعالٍ: "ألا تريد عملًا؟".

وبينما أفكر في اقتراحه وفيما يخص عملي لدى أهل البيت، أردف موضحًا:

- "رأيتك وأنت تحمل ذلك الشوال الضخم دون عناء. هناك مكان شاغر إن أردت".

- "حسنًا، متى يمكنني البدء؟".

- "غدًا.. نفتح في الثامنة".

قال باقتضاب واستدار متجهًا لأعلى المنصة مجددًا. عدت إلى الدار محملًا بشوال الدقيق، وليس في رأسي سوى الفتاة، والتفكير بكيفية التقرب منها. فكرت في أن أسأل عمتي عنها، لكنها لن تصمت، ساعتين زمن وتكون كل البلدة قد علمت أني فتى منحل، يطارد النساء ويكشف الحجاب عن الممنوع. ساعتين ويكون أباها على باب الدار، جاهزًا للثأر لسمعة ابنته. طردت الفكرة من رأسي وأسرعت للداخل تاركًا الشوال يفلت من يدي، وصعدت لغرفتي، مختليًا بنفسي، عازمًا كل العزم على إيجاد

سبيل لها، إلى أن غلبني النعاس.

أيقظتني أصوات البهائم الزاعقة في الفجر وهي تتأهب للذهاب للحقل بعد أن حلبتها العمة، ولم أستطع العودة للنوم وقد جفت عيني، وغزت الجنية السمراء – هكذا أسميتها– دماغي مرة أخرى. كان مرأى وجهها يشن غارة شعواء عليّ، حتى هممت بالقيام من مكاني، وذهبت نحو المطحنة رغم تبقي أكثر من ساعتين على موعد فتحها. لم أكن أنا من يتجه صوب الباب، بل كان شيء ما يشدني، آخذًا قدماي نحوه، ومانعًا إياي منعًا باتًا من التفكر في الأمر. كما لو كان ذلك نبأ من السماء، وقدرًا من الإله لا يمكن تفاديه.

وصلت إلى المطحنة التي بدت عملاقة أكثر مما هي عليه، ووقفت محدقًا لها وأنا أتطلع إلى خشبها الرطب العتيق الذي تلون بالحمرة بفعل ندى الصباح.

وإذا بنظري ينخفض على بابها، وأرى ظلًا يجاهد في زحزحة الباب ثم يدفعه ويلج للداخل.. لقد كانت هي. هكذا إذًا، لم يغلب عليّ النوم البارحة في هذا الوقت بالذات، ولم تحلب العمة البهائم في ذلك الميعاد بعينه لتوقظني، ولم يتأجج شوقي لها حينها صدفة، ولم تقُدني قدماي إلى هنا دون رأي مني، كل ذلك لم يحدث عبثًا، وإنما حدث لأقف حيثما أقف، متنسمًا عطرها البهيج، ومليًا عيني بوجهها الناعس الذي يتقاطر الحسن منه. بلعت ريقًا كالغصة، وتقدمت بحذر حتى دنوت منها مسافة كافية، وحين فعلت تسمرت بمكاني أتأمل شيئًا بسيطًا لكنه بدا لي فاتنًا للغاية، لدرجة لم أستطع معها كبح نفسي من النظر إليه مطولًا. كان خمارها قد تطاير قليلًا، كاشفًا عن رقبة سمراء ناعمة، وقد اقشعر جلدها فبدت بشرتها محببة بحبوب دقيقة للغاية، وللأسفل انكشف جزء من حمالة صدرها البيضاء. ركزت فترة كافية حتى أحسست وكأنني أغوص بداخلها، متجليًا أمامي وبصورة واضحة ما تحت ملابسها بالكامل من جسد يانع غض، مشرب بعرق التوتر، يرتفع وينخفض بأنفاسها اللاهثة، ومن أعضاء جسدها وأنسجته، بل وحتى من أبسط ذراته، كل ذلك بدا لي في غاية الوضوح.

بلعت ريقًا آخر، وتسارعت أنفاسي جرّاء أفكاري، حتى كدت ألهث، وعلى ما يبدو

فقد أثرت انتباهها، وألفيتها تلتفت، وحينئذ اعتلت وجهها نظرة فزعة، وكأنني آخر ما توقعت رؤيته. قالت متفاجئة:

- "نفتح بعد ساعتين، تعالَ فيما بعد لتقضي ما تريد".

فأوضحت لها: "لم آت لطحن القمح، فأنا أعمل هنا الآن".

بدت أكثر ذهولًا مما سمعت وقالت: "حقا؟!".

- "نعم، فلطفي بك طلب مني القدوم للعمل اليوم. وأنتِ، هل تعملين هنا؟".

- "ليس كثيرًا، فوالدي لا يسمح لي بذلك سوى ساعتين، حين يكون عليه الاستراحة بسبب مرضه".

- "لطفي بك.. أباكِ؟".

أشارت برأسها أي نعم، وهمت تتحدث بحديث آخر لكن قطعه زفرة خفيفة سمحت لها بأن تعيد التفكير فيما تريد قوله وقالت:

- "ألا تمانع أن تنتظر بالخارج حتى يحين موعد العمل؟".

وأضافت موضحة: "لا يصح أن يرانا أحد سويًا".

فعلت ما طلبت مني على مضض، وإلى أن حان موعد العمل فكرت في أن أتلصص عليها من خلف نافذة صغيرة لمحتها بالأمس، تقبع بالقرب من الأرضية في إحدي زوايا المطحنة، ولكثرة ما يتراص أمامها من أشولة القمح فلم يكن هناك سوى منفذ صغير يسمح بزاوية ضيقة ومحدودة من الرؤية، كان يتحتم عليّ أن أعدل من وضعية جسدي وأحرك رقبتي باستمرار حتى أتمكن من مواكبة حركتها من مكان لآخر. لم يكن هناك ما يسترعي الانتباه بخصوص هيئة مليحة والتي تبدو في غاية الرتابة والاعتيادية، لا يكاد يميزها عن أقرانها شيء. فقد كانت ترتدي جلبابًا أزرق فضفاضًا بلا أي زخارف أو نقوش عليه، وعليه خمار لازوردي كان من نحولها ودقة هيئتها ينسدل إلى أسفل جذعها وكأنها عائمة به، وأما وجهها فعلى الرغم من أنه لم يكن بملامحه ما يميزه هو الآخر من ملمح بعينه، إلا أن سماره الخفيف كلفحة

الشمس وسمته الطفولي ذو القسمات المنمقة، كان يرغم الرائي على أن يظن بها البراءة والخفة، وهكذا حُفرت صورتها في ذهني وأوهمت نفسي أن لا سبيل إلى تدنيسها بحبي، وأنه لزامًا عليّ هذه المرة ألا أحاول ولو أدنى محاولة الاقتراب منها. هكذا خُيل إليّ؛ بريئة ولا تعرف للحب معنى بعد. نعم، كل من لم يعرف حبًا ما زال في طور البراءة، كل من لم يعرف حبًا لم يتلطخ بعد.

إلا أنه وفي اللحظة الموالية، بدأ الطرق علي باب المطحنة، ودخل أحدهم بعد أن فتحت له مليحة، ليتقدم بجسده الضخم للداخل، وقد ظننته في البدء زبونًا، لكن انمحي ذلك الظن حين أُغلق الباب من ورائه وبدأ حديثًا مهمهمًا يدور بينهما، وجهت أذني القط خاصتي بيدي للأمام صوب المتحدثين وكأنهما طبقي إرسال، وبدأت أصغي السمع. تبينت بعض الكلام مما كان مضمونه أنه يتمنى لها صباحًا طيبًا وأن لباسها جميل، وأنه.. أنه قد اشتاق إليها!

أفلت يدي من وراء أذني ليرتخيا مكانهما من جديد، واكتفيت بالنظر فائزًا لنظرات عينيها الخجلتين وابتسامتها الممنونة نحوه. لكن لا، كيف أكون غاضبًا بشأن هذا؟ إنه يمنحني سببًا آخر يحول بيني وبين الاقتراب منها. على هذا أن يكون عادلًا ومدعاة للغبطة، فعلى الأقل قد تلطخت بفعل إنسان غيري. قبل أن تدق الساعة الثامنة ببضعة دقائق فُتح باب المطحنة من جديد، فنهضت من مخبأي متوجهًا للداخل، استقبلني بدوي –وهو اسم ذاك الضخم– بنظرات شذرة ووجه عابس. علمت فيما بعد أن بدوي ليس إلا عاملًا مثلي، انتدبه لطفي بك في صباه للعمل عنده ووثق به تمام الثقة، ولولا كثرة توافد الزبائن في الفترة الفائتة لما كان انتدبني.

وقد كان بدوي بجانب ضخامة جسده، ضخم الملامح بارزها، فكان وجهه أسمر ذو بشرة ملساء تمامًا مما يسمح لأنفه المفلطح بالتواطؤ مع شفتيه الغليظتين، أن يشيا بخشونة وغلظة، سرعان ما أكد عليهما صوته الأجش الذي يشبه في كثير صوت هدير محرك باجور زراعة تالف. ألقى عليّ تحية جافة توارت من بعدها مليحة وصعدت للأعلى، فيما كان يستأنف الحديث إليّ مدعيًا أنه لا يلقي بالًا لمغادرتها، ثم أملى عليّ أوامره، قائلًا أنني سأكون تحت إمرته بحكم قدمه في العمل لحين أتعلم.

نكست رأسي علامة الموافقة وذهب كل منا لحال سبيله مستقبلين الزبائن.

بحكم أن سبيله وعمله ذاك، والذي استمر لفترة طويلة، لم يكن سوى الجلوس فوق كرسي هزاز مرتكزًا أعلى المنصة، مراقبًا لي، مدققًا في كل تفاصيل تحركاتي وأنا أؤدي العمل عنه، بل ومتبجحًا بتعديل كل ما أقوم به، ومن ثم ففور أن يهبط لطفي بك كان يثب، مدعيًا كذبًا أنه يعمل بجانبي. وخلاصة القول أنه استمر في فعل ذلك حتى بعدما أتقنت العمل ولا حاجة لي بتوجيهاته، وكأن فيما يفعله لذة رهيبة له لا يستطيع الإقلاع عنها، وكأنما يحاول إفهامي بطريقة فجة أن ما رأيته في ذلك اليوم وظني بهما هو حقيقة تامة.

ومن باب الحق، فقد كنت سببًا فيما يفعله بي، لقد ارتأى بدوي في قدومي خطرًا محدقًا عليه أو بالأحرى عليهما، فكان يعتقد بأنه بما يفعل كان يمنعني من منافسته إياها، وأظن أني مضطر للتوضيح لكم بأنني لم أنتوِ على الإطلاق منازعته عليها، هنيئًا لهما، هكذا قلت لنفسي، وذلك إلى أن حان.. وقد حان في يوم وصلت فيه للعمل باكرًا كعادتي، لكن فاتني أن اليوم هو بداية موعد موسم حصاد القمح في البلدة، مما يعني أنه لا زبائن ستأتي في تلك الأيام، وعليه فقد منحنا البك إذنًا بالقدوم ساعتين متأخرًا. فاتني هذا، ولأحابيل الحب أنه فاتني. قرعت عبثًا الباب المغلق دون توقع إجابة، وحين لم يكن هناك بالفعل، هممت بالرجوع، إلا أنه تهيأ لي أني سمعت خشخشة بسيطة تأتي من الداخل، وقد أسعفتني أذن القط مجددًا حين ألصقتهما بالباب وتأكدت مما سمعت.

ذهبت إلى حيث المخبأ، وبدأت أجيل ببصري من الفتحة يمينًا ويسارًا إلى أن وقعت عيناي عليهما وهما يقبلان بعضهما البعض، ولتحري الصدق فإنه من كان يفعل، كان بدوي يجذب مليحة ناحيته، ممنطقًا خصرها في كثير من القوة لدرجة الاعتصار، بينما المسكينة تبدو في وضع من لا يقدر على شيء، لكنها على كل حال لا تقاوم.

"هذا.. كيف يجرؤ على تقبيلها بمثل هذا الصلف؟ إنه لا يجيد التقبيل. مهارته زيرو!". وهكذا فقد بدا لي أنها لا تستحق شخصًا بمثل ذاك غلظة، شخصًا لا تتبدى فيه

أي علامة على الرقة والرومانسية، ولا يجيد التقبيل. وفي ذلك الحين بالذات، عرفت أنني أضمر لها من الحب نصيبًا، ولا جدوى من مداراته مجددًا، إن مليحة تستحقني. عدت أطرق الباب مجددًا بقوة أكبر، وفي مخيلتي أنني سوف أضبطهما متلبسين بجرميهما دون أن يكون لهما القدرة على التبرير، لكن للمفاجأة فتح لي بدوي الباب وبدا وحيدًا ولا أثر لمليحة في الأرجاء.

"ما الذي جاء بك مبكرًا؟" سأل وحدقتاه تدوران من التوتر.

"لمَ الباب مغلق؟" سألته مقطبًا حاجباي غضبًا.

تلجلج في رده قائلًا: "كنت أستريح لحين موعد البدء".

رمقته بنظرة فهم على إثرها أني ضبطت كذبه، وصرت أتجول في المكان لكن لا أثر لمليحة. وفات اليوم، وجاء نهار اليوم التالي، نزلت مليحة في منتصف اليوم تتفحص الأجواء كعادتها، وقد انتابتني الريبة حول ما حدث بالأمس، وأن كل ذلك لم يكن سوى من اختلاق ذهني المهووس، ولم تكن مليحة هناك بالفعل. لكن سرعان ما نسفت مليحة ذلك، فقد كانت على برائتها كامدة الوجه في ذلك الوقت، شاردة تمامًا، ويتبدى في عينيها نظرات خجلة خاطفة لامعة بالحزن، وما فوق ذلك أنها كانت تتحاشى النظر إليّ بشكل واضح.

"لأي حد وصل في تعذيبها ذلك الجلف!".

شعرت بشفقة بالغة تجاهها، وحقد كبير على بدوي، وكان عليّ فعل شيء ما تجاه ذلك، ولذلك فقد شرعت فيما بعد في التقرب منها ومحاولة أن أجعلها تطمئن لركني، وقد كان حبها لبدوي هشًا لدرجة أنه سرعان ما أدركت منالي وتوطدت علاقتنا، وبجانب ضعف حبها لبدوي، فما جعل الأمر أكثر سهولة كان يتمثل في هشاشة مليحة ذاتها، وحاجتها دومًا لظهير تستند عليه، معتمدة في ذلك على حبٍ واهٍ أو جرعات من قطع الشيكولاتة والسكاكر والطعام بشكل عام. أدركت ذلك سريعًا فصرت أدخر أغلب ما أتقاضاه لكي أجلب لها أغلى أنواع الشيكولاتة معطيًا لها إياها سرًا.

هل تصدقون هذا؟ كم كان سهلًا نيل حب فتيات تلك الأيام! إلا أنه رغم تقاربنا لم يكن بيننا شيء، كان الأمر وما فيه تبادل بعض الكلام وبالطبع فقد حرضتها على كُره بدوي، وبينت ما فيه من صفات لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يطيقها إنسان.

- "هل تصدقين أنه لا يغسل قدميه أبدًا! لقد شممتها مرة أثناء صلاتنا، رائحة كالقبر. لا أعرف كيف ستتحمله زوجته، هذا إن تزوج أصلًا. وأسنانه.. أوف! أعتقد من صفارها أنه لا يغسلها. لا بد أن رائحة فمه نتنة، كيف لزوجته أن تتحمل تقبيـ... على كل حال أنتِ تفهمينني. أغسلها مرتين بالمناسبة، أغسلها جيدًا.. حتى انظري إليها. لا تلتفتِي لصفارها الخفيف، هذا نتيجة أكل الباذنجان الأسمر، تريدين واحدة؟".

وهكذا، يومًا بعد يوم ترسخ بها أن بدوي لا يستحقها، ولم تعد تعيره أي اهتمام، حتى أنهما لم يكررا لقائهما من بعدها أبدًا. علمت أن دافعي وراء كل ذلك لم يكن سوى حبي لمليحة، وإلا فكيف أفسر بغضي الشديد لبدوي وغيرتي عليها؟ لماذا لم أتركهما وشأنهما إن لم أكِن لها المشاعر بالفعل؟ والأكثر من ذلك لمَ أردت لها الأفضل، الذي يتمثل بالتأكيد في حبها لي بدلًا من بدوي؟ وقفت كل هذه الأسئلة بلا إجابة، وعندما نجهل الإجابة لا يكون هناك سوى الحب. وهذا ما أبدته لي مليحة بدورها؛ أنها تتقبل حبي. وكان هذا في فعل صغير منها.

بعد انتهاء موسم الحصاد، زاد توافد أهل القرية على المطحنة بطبيعة الحال، حتى كان أحيانًا لا يتهيأ لنا أن نجلس ونستريح ولو دقيقة طوال اليوم. ومر يوم من هذه الأيام الضاغطة علينا، حيث تكدس بهو المطحنة وفناءها بالناس، وأنا وبدوي كالثيران نركض خلف حاجياتهم حتى جاء موعد مراقبة مليحة في منتصف اليوم بدلًا من أبيها. حينها لم يكن باستطاعتي التقاط أنفاسي وكدت أفطس، لكن الثور بدوي لم تبدُ عليه أي أمارات من التعب أو طلب الراحة، فخجلت من طلبها لوحدي، وأي أمر يمكن أن يتفوق فيه هذا الثور عليّ أمام محبوبتي؟

وعوضًا عن طلب الراحة، عمدت إلى أمر يمكنه أن يوقف العمل لحين أن نستريح، فذهبت حذرًا ناحية جانب ماكينة الطحن، متظاهرًا بالاستناد عليها بينما يدي في الخفاء تقوم بالعبث بأحد براغي الماكينة، وما هي إلا لحظات حتى ابتعدت ومن

ورائي تطلق الماكينة خوارًا منذرةً بعطلها، وصمت من بعدها كل صوت وخفت كل ضجة، والزبائن تنظر إلينا في حيرة من أمرهم.

- "أوه! لقد تعطلت الماكينة! انتظروا ريثما نصلحها".

قلت بصوت عالٍ وأردفت: "اتركوا أشياءكم إن أردتم وتعالوا فيما بعد".

بينما مليحة تنظر إليّ من طرف خفي مقطبة وجهها، وسرعان ما فكت تشكيرتها وابتسمت لي ابتسامة كاشفةً أمري. تكدس الناس زيادة في البهو وصاروا يتدافعون متصايحين حتى ضج المكان بالهدير والصخب، هبط على إثره لطفي بك من أعلى متسائلًا عن سبب الضجة. اقترب منه بدوي وهمس له بأمرٍ ما، فصعد لطفي بك مكان الحادث وهو يعاين البراغي، ثم نظر لي ولم أكن أعلم أن بدوي اكتشف فعلتي بجانب مليحة.

- "مَن فك هذهِ البراغي؟".

سأل البك وهو يحملق بي منقلًا بصره بيني وبين بدوي، انعقد لساني ولم أجرؤ على الحديث.

" بدوي فعل". جاء الجواب بصوت حاد واثق من نفسه. تحولت الأنظار كلها تجاه المتحدث، وقد كانت مليحة، التي أطرقت رأسها وعادت لترفعها متحاشية نظرات بدوي اللاهبة لها، مؤكده على كلامها:

- "لا بد أنه من فعل، لقد ارتكن عليها منذ حين، لكن لا أعتقد أنه أسقطها عمدًا".

همَّ بدوي يتحدث، ولكن نظرة تقريع حادة من البك أخرست لسانه، وسرعان ما غادر البك مشددًا على عدم تكرار هفوات مثل تلك مجددًا، ومن وراءه بدوي يغمغم بكلام غير مفهوم ويضرب يديه كفًا بكف، محدقًا بي أنا ومليحة غير مصدق لما يدور. وهكذا، لم يكن هناك سبب محرك لما حدث غير الحب، كان هو الإجابة النهائية. وعليه، ففي اليوم التالي أحضرت لمليحة مكعبين من الشيكولاتة، وقد تهللت أساريرها فور رؤيتها، وأحضرت بجانب ذلك ثمرتي برتقال يانعتين سرقتهما للتو من إحدى شجيرات الحقول بزهرتيهما، دافسًا إحداهما في الفراغ ما بين حجابها

ورأسها.

- "هذا.. هذا لشكرك على ما فعلتيه بالأمس".

التقطت مليحة الزهرة الأخرى من يدي بخفة وغنج وهي تتنسمها وقالت:

- " لا عليك، هذه تكفي للشكر".

- "ولكن هل رأيتني؟".

- "رأيتك".

- " ولمَ كذبتِ؟ صحيح أنني فعلتها مرغمًا، كنت منهكًا، وإنما كنت قادرًا على شرح ذلك للبك".

- " لم يكن ليتفهم، لقد خصم لبدوي أجر يومين".

تصنعت الحزنَ على ما حل ببدوي وسألتها: "أنتِ وبدوي.. ألستما...؟".

لم أكن بحاجة للاستكمال، فقد احتقن وجه مليحة على الفور وتورد، ولم أكن أدري أخجلًا أم غضبًا حتى ردت بعنف مقتضب:

- "ليس حسب ما تظن".

- "إذًا لمَ...؟".

وأدركت غباء سؤالي فأمسكت عنه، عليّ أن أنسى ماضيها مع بدوي، لنبدأ صفحة جديدة. كذلك قلت لنفسي، وإنما تأجج شيء ما بقلبي عند ذكر علاقتهما، شيء كالنيران التي تلفح صاحبها فيرتد مجفلًا عنها. أجبرني هذا الشئ على التفوه فورًا بما أكنّه لها من حبٍ مُتلهف، وكأن في ذلك انتصار على أمر ما أجهله، لكن مليحة تلقت الخبر بتردد، دون أن تبدي أي رد، بيد أنها لم تبدِ أي اعتراض كذلك.

- " لم يعجبكِ ما قلت؟ أنا آسف".

أخبرتني أنه لا داعي للاعتذار، وأن الأمر وما فيه أن بدوي ما يزال يتقفى آثار

قلبها، على أمل أن يظفر به ثانيةً. أدركت ما لفح قلبي من نيران حينها، وأنه لا يمكن أنا وبدوي أن نتقاسم قلب مليحة، والأهم أنني بالتأكيد لن أنافسه إياه، بل وبكل بساطة سأنتزعه منه نزعًا. أنهيت حديثي مع مليحة، متفقين على لقاء آخر قريب، ومن بعد فقد افترقنا، ولبثت مترقبًا مجيء بدوي. جاء بدوي مرتسمًا على وجهه غُمة، وما أن رآني حتى زاد حنقًا وغضبًا متلظيًا. لم يرمِ عليّ السلام وإنما سار لداخل المطحنة صامتًا، ملتفتًا في كل خطوة إليّ، منذرًا إياي بالعقاب. سرت في أعقابه إلى أن اجتزنا البهو، وصعد بدوره نحو كرسيه الهزاز موليًا وجهه نحوي وأنا أكلمه من أسفل المنصة.

- "ماذا تريد بالضبط؟ منذ أن وطأت قدمك النجسة المكان وأنا أعلم نواياك. لن أسمح لك بتحقيقها".

- "آه! ولكن لم أنتوِ شيئًا. الأمر وقع صدفة، وقد رأيت بنفسك بالأمس".

- "لقد أغويتها.. هذا واضح. لكن مليحة ما زالت تحبني".

- "وإن لم تكن؟ يمكنني أن أريك أنها لم تفعل قط. لقد كنت زوبعة وطارت".

لُجم لسان بدوي وسكت هنيهة، ثم برطم بعنف:

- "كاذب.. إنها لا تحبك، بل تحبني. لقد كذبت على البك لإنك ترهبها، بأي أمر تهددها حتى تبتعد عني؟".

- "لم أهددها. اسمع، هي لا تحبك. سأثبت لك، إنما إن فعلت فلن تقربها ثانيةً".

- "وكيف ستثبت؟".

- "اتفقنا أن نتقابل بعد يومين. هنا، في ذات المكان".

وأخذته من يده هابطًا به الدرج وأشرت له ناحية ثقب النافذة.

- "يمكنك أن تشهد لقاءنا بنفسك إن أردت من هذه الفتحة. وإن فعلت فستتركها للأبد".

كان بدوي في حيرة من أمرِه، لا يعرف رأسه من قدمه وأي قرار يقدم عليه، لكني بادرت بالشد على يده مؤكدًا على اتفاقنا.

وبعد يومين، جاء الموعد، وقبيل مجيء مليحة كان عليّ الاعتناء بأمر فسحة النافذة، فأزحت بعضًا من الأشولة المتكدسة أمامها، وذلك حتى يتسنى لبدوي مشاهدة اللقاء بوضوح دون تشنج فقرات رقبته. بعد ذلك جاءت مليحة في ثوب متراخٍ كعادتها، إلا أنه هذه المرة تنازلت ووضعت على رأسها حجابًا مزركشًا زاهي الألوان بدلًا من خمارها السادة، وكان يبدو جليًا استخدامها لمساحيق التجميل من سذاجة عهدها بها، فقد تلطخت خدودها باحمرارٍ قانٍ غير منتظم مع أحمر شفاه قد تجاوز الشفاه، وعليه فقد بدت الفتاة البسطية كإحدي عرائس المولد، ومع ذلك فقد خففت براءة ورقة ملامحها من وقع هذه الكارثة، فأبقت على جمالها بشكل خاص وغريب.

افترشت مليحة طاولة صغيرة في وسط صالة المطحنة، ووضعت عليها كيسًا ثم دعتني للجلوس، وفضت ما بالكيس من فطور، مناولة إياي شقفتين من الخبز محشوتين بفائض من الفول والزبدة والطماطم، دون أن تستأثر لنفسها بقطعة حتى، متعذرة بأنها قد تناولت الفطور مسبقًا. انصبت عيني على الفسحة وهناك رأيت عينا بدوي ترصد. قلت في نفسي لصاحبها: "أي إثبات آخر تحتاجه لتعلم أنها تحبني، غير أنها تطعمني؟".

ما زال الفطور وما زالت هناك العين التي ترصد، إلا أن هيأتها بدت متغيرة. فتحت فمي بالحديث والطعام محشو به: "إذًا مليحة.. الأكل طيب..". وصمت فجأة عما أنا معتزم بالحديث عنه مبتلعًا اللقمة في فمي ثم عدت أستكمل الحديث:

- "أما زال بدوي يتقفي أثركِ؟".

هزها السؤال بدايةً وبلعت ريقها وقالت:

- "إنه موضوع لا لزوم له الآن".

- "مليحة، بدوي لم يعد يحبكِ. لقد أكد لي".

- "أكد لك؟ كيف؟".

- "لا تقلقي، لقد تحادثنا سرًا. قال أنه لم يعد يهتم بكِ وأنه سيتركك وشأنكِ".

- "حقًا؟ احلف لي!".

- "لا داعي. لتصدقيني بحق.. بحق حبنا".

وأخفضت مليحة بصرها لدى سماعها الكلمة خجلًا:

- "حسنًا، بحقه.. أصدقك".

وصوبت عيني على الفسحة، وكانت العين التي ترصد لقاءنا لا تزال بمكانها، ولكنها مختلفة بدت لي مختلفة عن عين بدوي!

"متى يقتنع هذا الغبي بأن الأمر انتهى؟".

انتصبت واقفًا مديرًا ظهري لبدوي الذي ما زال يتلصص، عازمًا على إنهاء الأمر حالًا، فانتزعت مليحة من الكرسي وأوقفتها أمامي مباشرة، بحيث يرى الراصد ظهري ومن أمامه وجه مليحة. ودون أن أفكر في عواقب فعلتي، ونكايةً في ذلك الغبي فقط، استعجلت تقبيل مليحة، فشددتها نحوي وقمت بفعل ذلك. وأي سعادة أحسست حين لم تصدني عنها، بل على العكس، قد تجاوبت معي. لقد كان في ذلك كفايةً ليعود بدوي مندحرًا، لقد انتهى الأمر.. مليحة لي فقط. ولم يتبقَ سوى اعتراف بدوي بالهزيمة.

على ما بدا، فقد رفض بدوي أن يشهد الهزيمة بمفرده، وحشد معه نفرًا من الصبية يشاركونه الفرجة، ففور تقبيلي لمليحة حدثت جلبة وضجة بالغة، وحل الهرج والمرج فجأة من وراء الفسحة، وصاح صوت بأعلى ما يمكنه: "أبو أذن مطرقعة قبّل بنت البك". انتفضت مليحة من جانبي، ونظرة صاعقة تعتلي وجهها نحوي، ومن ثم فقد هرعت نحو الباب مجاهدة لإنزال المزلاج، وهي تنطلق بأقصى ما يمكنها تجاه الخارج وأنا أعدو في أعقابها.

وانبجس من تحت الأرض رجالًا وصبيانًا يعدون في إثري، ملقين عليّ بكل ما

أمكنهم أن يلقوه من حجارة وشباشب، وعلي قارعة الطريق، كانت تنطلق مليحة من اتجاه وأنا ألتفت إليها بحسرة وأعدو بالاتجاه الآخر.

وهكذا، فقد افترق الاتجاهان للأبد، وعدوت متخفف القدمين من نعليهما، مثقل كلًا من الفؤادين بفاجعتيهما إلى أن اجتزت حدود القرية، مخلفًا من ورائي مليحة والخادمة.

(3)

ركضت حتى أدمت قدماي، ولا أعلم كم من الوقت مضى ولا أين كنت أنوي أن أصل، إنما ركضت فقط كالثور الهارب من المذبح، دون أن أتذكر شيئًا سوى لهاثي وأنا أنطرح تحت ظل عريشة من أخشاب الزنزلخت، يتوسطها شجرة عنب ملتفة الأغصان وتتخلل ثقوبها أشعة الشمس الماثلة للغروب، فغفوت من فرط التعب، إلى أن جاء ضيفي.

جاء الضيف كطيف خافت في غبشة الليل وهو ينحدر من أعلى تلة ترابية، مدليًا من يده سراجًا ومتوجهًا به نحوي. فركت عيني وأنا أرنو نحوه محاولًا تبين ملامحه لكنه كان يتقدم نحوي زحفًا بسرعة بالغة حتى أصبح قبالتي. فركت عيني مجددًا، إلى أن تأكدت مما أرى هذه المرة. أنزل الضيف سراجه وجلس بجانبي، ثم سعل سعالًا حادًا وقال وهو يكاد يفطس في سعاله:

- "آدم، كيف حالك؟".

- "أبي!".

- "لم لا تسأل عني؟ أترى قد نسيتني؟".

- "بلى، لكني لا أريد تذكرك".

- "أوه! ما معنى هذا؟ إذًا قد نسيتني".

- "لا، قلت لا.. لكني ما أريد تذكر أنك تركتني هنا وحيدًا".

- "آه، فهمت! لو تعلم كم تهون الوحدة في مقابل ما أعانيه هناك!".

وتوقعت أنه سيتكلم عن إلقائه بالجحيم، لكنه أوضح:

- "هؤلاء الملاعين، لقد أودعوني في قبر ضيق جدًا، اضطجع فيه وركبتاي مطبقتان فوق صدري. وفوق ذلك هناك رائحة بول حادة فوق قبري، أتعلم من يبول عليّ؟".

خشيت أن أقول له أنه أنا، وأني فعلت ذلك لأني سمعت أن نجاسة البول تمنع هروب الروح من قبرها، لكن لا أعلم كيف أفلتت روحه من هناك إلا إن كانت نجسة كذلك.

- "على كلٍ -استكمل حديثه- لقد تركت الآن خادمتك وحبيبتك ورائك، أيمكنك أن تنبئني إلى أين المسير؟".

- "لا أعلم.. أيمكنني العودة مجددًا وطلب الصفح؟".

- "لا خير لك هناك. عمتك تطيق العمى ولا تطيق شيئًا من رائحتي، بل عد من حيث أتيت، استقل القطار".

وبرقت لي تلك الفكرة سليمة، فلا فرق بين أن أتشرد في شوارع القاهرة وبين مكوثي مع عائلة والدي، وهم يذيقونني العذاب. على الأقل في القاهرة سيُتاح لي البحث عن حبي بحرية أكبر. تبقت مشكلة صغيرة، وهي أن أموالي قد نفدت في شراء الشيكولاتة لمليحة، وبينما كنت أفكر في الحل اختفى الضيف، واستيقظت في متنسم الصباح على خشخشة شيء يشمشم بخطمه في وجهي؛ كان كلبًا صغيرًا. جرجرت قدمي إلى محطة القطار حيث الزحام الخانق، مما سمح لي بسرقة بعض المال من أحد المسافرين دون أن يُشتبه فيّ، قطعت تذكرة واحدة، ولكن في الحقيقة كنا اثنين؛ أنا والكلب، الذي كان من صغره يمكن إخفاءه في صُرة وكأنه متاع.

حين وصلت محطة رمسيس، غمرني إحساس شجي غامض. الآن لم أعد فقط بلا أب وأم أو عائلة، بل عدت بلا مأوى وبلا مال أو عمل. وعلى العكس مما توقعت، كان في هذا شعور بالتخفف والحرية، ولكن أي حرية أفكر فيها وعصافير بطني تزقزق من الجوع؟ وأي غباء جعلني أحمل معي بطنًا أخرى جائعة! نظرت إلى الكلب وقد امتثل قعودًا على قائمتيه الخلفيتين وهو يهز ذيله يمينًا ويسارًا وينظر إليّ بعين ضارعة، وقد أسميته منذ تلك اللحظة رمسيس. ولما لم يكن من الممكن التغلب على الجوع سوى بالنوم، أخذت أسير، ورمسيس من ورائي، بلا وجهة، آملًا أن يرهقني السير فأسقط من طولي نائمًا ناسيًا الجوع. وفي طريق سيرنا، عرجت على جامع

وقت صلاة العشاء، وأخذت منه حذاءً يحمي قدمي من استفحال الجرح فيها. وبعد مسيرة ساعتين كنا أنا ورمسيس تحت تمثال عبد المنعم رياض، أنا هالك من التعب وأطلب النوم وهو يفتش بين سلال القمامة يطلب الطعام.

بعد برهة عاد إليّ رمسيس وهو يهر من السعادة وفي فمه رجل دجاجة مهترئة قد غرز بها أنيابه الصغيرة. وضعها أمامي فرحًا بصيده وبدأ في أكلها، وللحظة أحسست أن ما بي من جوع قد ولى، فربتُ على الكلب وغفوت تحت التمثال، إلا أنه بعد وقت قصير أيقظتني معدتي الفارغة على ألم ممض، لم أستطع معه إلى النوم سبيلًا من جديد. كنا قد اقتربنا من الفجر، والشوارع قفرت من المارة، وعند قدمي استلقى الكلب مستغرقًا في النوم، فلم أرد إيقاظه، لذا ربطت على بطني خيط دوبارة سميك وحاولت العودة للنوم، لكن عبثًا.

قضينا أنا والكلب أسبوعين نجول في تخوم ميدان عبد المنعم رياض والمتحف المصري على مثل هكذا حال من البؤس والجوع. كنا نقضي أغلب النهار في استجداء الصدقات، وفي أغلب الأحيان، حين لم يكن يفلح ذلك، كنا نتوجه نحو مطاعم اللحوم والأسماك المنتشرة في شوارع طلعت حرب. وبخطة محكمة وسريعة، كنت أنجح في جعل رمسيس يتسلل إلى مطابخهم، وبعد لحظة يحل الهرج والمرج في المكان، ويخرج رمسيس ركضًا ظافرًا بقطعة من اللحم في فمه، وحين تخفق مطاردة أصحاب المطاعم له، كان يتدحرج ويتواثب بأطراف قوائمه على الرصيف، وننقض سويًا على وليمة اللحم التي جاء بها.

بعد أسبوعين، وبينما كنا نائمين أنا والكلب تحت التمثال، ربتت يد القدر عليّ لتوقظني. فتحت عيني على رهطٍ من الناس تتوسطهم امرأة بلباسها المهلهل الذي يكشف عن ساق متغضنة وذراع قد ترهلت عضلاته وجلده، أما وجهها المجعد فقد كان على نحوٍ ما محتفظ برونق وإثارة. وعلى العموم، فقد بدت عليها علائم الحزم ورفعة المكانة. قالت المرأة لمن كان يتولى إيقاظي: "حاول أن توقظه بلطفٍ أكبر". فينظر لها البقية بعين الإعجاب ويقول أحدهم: "كم أنكِ رحيمة ولطيفة يا سيدة لطيفة، تخشين عليه من روع الاستيقاظ المفاجئ وهو متشرد قد تعود على قسوة

الشارع".

فترد عليه السيدة: "الإنسانية في أبسط الأمور، لويس بيه. ديالكتيكية الإنسان تفرض عليه التعامل بلطف حتى مع الهواء الذي يتنفسه".

ومدت لطيفة هانم لي يديها بكيس من البسكويت السادة وهي تمسح على رأسي وتسألني أن آكله. وبينما يكاد يخشع الجمع بالدموع لمنظر الإنسانية ذلك، كنت في ثوانٍ قد أجهزت على كل البسكويت وتناثرت فتافيته فوق ملابسي. أعطتني كيسًا آخر وبدأت همهمة من الجمع حولها: "أليس هذا كافيًا يا لطيفة هانم؟ هناك الكثير غيره".

كان المتحدث هو أستاذ لويس، والذي علمت فيما بعد أنه نائب رئيس جمعية حقوقية تعني بشؤون المرأة، أما لطيفة هانم فهي الرئيسة. لم تعِر لطيفة هانم لحديثه بالًا، وكانت في أثناء ذلك تنظر إليّ بعين متفصحة شبه ذاهلة، كانت تدقق في كل جزء مني تقريبًا. وما أن بدا أنها انتهت حتى اقتربت مني وهمست لي بعيدًا عن آذان البقية "كم عمرك؟".

" لا أعلم. ستة عشر-وصمت متفكرًا- أو سبعة عشر ربما. لقد نسيت العمر بالضبط".

" وأين البقية؟ " كانت تسأل بنصف غمزة.

لم أفهم السؤال فأردفت موضحة "أهلك، أين هم؟ أبوك وأمك؟".

"ليس لي أب ولا أم".

انطلقت تعابير البشر على وجهها، وتراجعت للوراء لحظة ثم نبست: "جميل". ولم أفهم لِمَ يمكن أن يعتبر فقداني لأبي وأمي شيئًا جميلًا، وكان هذا ما فهمته فيما بعد. جمعت لطيفة هانم حاشيتها وأخذوا يتهامسون بعض الوقت فيما بينهم، ومن حينٍ لآخر يلتفتون بأنظارهم إليّ، وكانت تلك الحاشية مكونة من أربع نساء عدا لطيفة هانم، وهنّ الشابتين فوزية وميرال، والآنسة مفيدة، ومدام مايا. وفي عموم المظهر فإنهن لم يكن يختلفن عن الهانم كثيرًا من حيث الغرابة وإهمال الهندام، أما الرجل الوحيد فكان هو الأستاذ لويس، وقد كان صاحب قامة قصيرة أقرب للقزامة، ويضع

على عينه اليمني عدسة نظارة ضخمة، فيما يتأبط كتابًا اسمه "الجنس الآخر".

صاح الأستاذ لويس بعد حين: "هذا كثير يا لطيفة هانم، يا لكِ من إنسانة رائعة. إن الإنسانية لفخورة بكِ وبتضحية مثل هذه". ثم توجه الجميع نحوي متهللين، وأخذني صاحب العدسة الضخمة من ذراعي وأوقفني قائلًا: "لا تعلم كم أنك محظوظ! ستعتني بك قديسة، أهم من الأم تيريزا". وأشار ببصره ناحية لطيفة هانم، التي ارتسم على سحنتها كثير من الحبور والجذل.

تبعت الحاشية ومعي رمسيس حاملًا إياه بين ذراعي، وأنظار لطيفة هانم المهتمة نحوه، وحين حاولت مداعبته رفض رمسيس بزمجرة عنيفة لكنها مضحكة على صغره، فتراجعت عنه في الحال يد الهانم.

- " ما اسمه؟".

- " رمسيس".

أطلقت ضحكة خافتة وقالت: "الأول أم الثاني؟".

وانطلق الجمع من بعدها في قرقرة صاخبة، بينما فتح القزم صاحب العدسة شدقه مجددًا هادرًا: "نكتة ظريفة جدًا، يمكننا وضعه بالميدان تعويضًا لتمثال الأب الذي خرج". وانطلق الجميع مجددًا في ضحك صاخب.

وفي وسط موجة الضحك أعلنت الهانم قرارًا جديدًا، بأنها ستتبني رمسيس هو الآخر، لأنه، وعلى حد قولها، "حقوق الحيوان من حقوق الإنسان، بل الحيوان أولى بها، لأنه لا يملك التعبير عنها، وليس هناك كلبًا يدافع عن حقوق أبناء جلدته، ويشرفها -هي- كثيرًا أن تكون ذلك الكلب".

وانتهى خطابها كما العادة على موجة من المديح والتصفيق لمثل تلك الإنسانية العارمة، والرحمة الخالصة النادرة التي انتهت من زمننا ولم يعد يمثلها سوى السيدة لطيفة. انتهى بنا الأمر بعد مسافة قليلة أمام منزل الهانم في شارع شامبليون، وبالتحديد في انعطافة يقع على ناصيتها مقهى صغير، قد حُفر حفرًا بشكل عمودي وسط حارة. استأذنت حاشيتها أن ينتظروها على المقهى ريثما تعتني بي أنا

ورمسيس. وفور أن فعلوا جذبتني لداخل بهو المنزل وانتزعت الكلب من حضني وصعدت نحو الأعلى وأنا أركض في إثرها. فتحت بابًا فبرز من ورائه منظر مهيب لشقة قد خربت تمامًا، حتى أن جدرانها قد تقشرت عن أسياخ الحديد تحتها، كما لو أن عملية هدمها المفترضة قد توقفت فجأة.

انتابني الهلع وفكرت أن أهرب مجددًا، فلا فرق يعتبر بين الشارع وبين خراب الشقة. لكن الهانم سرعان ما أودعت الكلب في إحدى الغرف-أو ما كان من المفترض أنها كذلك-، وانطلقت للخارج وأغلقت الباب من دونه، والكلب ينبح من الداخل. وبعدما أودعت الكلب بالداخل قالت لي بلهجة صارمة جدًا وقد تشنج وجهها: "لا تخبر أحدًا، مفهوم؟ على العموم إنه كلب أجرب، فلا يصح أن يقيم معنا، سيصيبنا بالأمراض".

وحين كدت أنطق أنه ليس كذلك أنهت الهانم الأمر بقولها: "يكفي أنه سيكون له مكان وطعام الآن". وقد كان ردها مقنع بحيث لا يمكن معه النقاش. احتضنتني الهانم برفق وهي تهبط بنا نحو شقتها، وهي شقة لا تختلف في كثير عن أعلاها إلا في تماسك ووضوح حدود جدرانها. وأول ما دخلنا استقبلتنا جحافل الناموس بحفل دموي انتهى بعد برهة على مذبحة جماعية بفضل إشعال أقراص الناموس، ثم هرعت الهانم نحو كوة في الجدار الملاصق للشارع لتسد الطريق على بقية جحافل الناموس بورق الكرتون.

كان كل شيء في المكان يشي بفقر مدقع، لكن اتضح في الأخير أنه لا يشي إلا بنتانة صاحبه وبخله المقصود. كانت ترتمي على الكنبة في عرض الصالة سراويل داخلية وقميص نوم أسود مزركش من الدانتيل، وهناك في ركن الكنبة عمود وردي صغير يعلوه رأس مستدق ومتصل بسلك الشاحن. كان يشبه الميكروفون، لكن اتضح أنه ليس إلا أداة للمتعة الجنسية، وما أن وقع بصري عليه حتى جفلت الهانم وركضت ناحيته تخفيه بينما علا وجهها ابتسامة خبيثة قائلة: "لم يحن الوقت بعد لتعرف هذه الأمور، هيا لنحممك الآن". قالت وجذبتني ناحية الحمام وبدأت في خلع ملابسي العفنة متأففة من رائحتها: "آي! رائحة قبر. كما لو كنت مرحاضًا لرمسيس".

ملأت الحوض المتهالك بالماء وغطستني فيه وهي تمسح أو بالأحرى تجلخ جسدي كله بالليفة، وفي أثناء ذلك كانت تملي الهانم عينها مني وهي راضية الملامح وتبتسم، كانت ابتسامتها شيء من تعابير وجه أم تتأمل بوجه طفلها بعد الولادة. وراحت بعدها تفرك جسدي بقوة أكبر وتمرر يدها على جسدي لتشطفني، ولكن كان هناك مشكلة، أن الماء أصبح من الاتساخ بما لا يمكن أن يُشطَّف به.

وريثما تعيد ملأ الحوض بماء نظيف ذهبت لتجلب لي طقم ملابس، آمرةً إياي بأن أظل ساكنًا في مكاني، ولكني أحسست بحكة في قدمي المتقرحة، فخرجت من المغطس وجلست على أرضية الحمام اتفحصها، وما أن فعلت حتى أطلت الهانم وفي يدها الملابس التي سرعان ما رمتها بعنف على الأرض وجحظت عيناها وقالت وهي تعقد يديها بوسطها: "ألم أقل لك لا تتحرك؟". ولم تمهلني فرصةً للحديث لتندفع نحوي وتنهال عليّ بالضرب.

- "هذا ليس شارعًا، تعلم النظام وإلا علمتك إياه! انظر، لقد أفسدت الأرضية بالماء".

وصارت كالمخبولة تبحث عما تمسح به الأرضية، فالتقطت القميص من الأرض وألقمتني إياه آمرةً: "امسح هذه الفوضى، حالًا".

نظرت مبهوتًا لما تحول إليه كائن كان لطيفًا منذ حين والآن صار مجنونًا هائجًا، وقد برز عرق ثخين في جانب جبهتها، فتملكني الرعب ورحت في الحال أنكب فوق الأرض، عاريًا، أمسح ما خلفته من فوضى. وهذه الفوضى المذكورة لم تكن تتجاوز سوى انطباع آثار جسدي المبتل على بلاط الأرضية. ورغم أنني أنهيت مهمتي سريعًا ونشفت الماء، إلا أنها كانت لا تزال تبرحني ضربًا، ولم يتوقف بكائي ونشيجي إلى إن انهدت قواها وتوقفت. وحينها ركعت الهانم على الأرض تستكشف جرح قدمي.

- "أوه! هذا جرح كبير حقًا. يا للمسكين!، لقد تقرح- كانت تقول بنبرة آسية حقيقية- انتظر هنا ولا تتحرك".

وليس هناك داعٍ لذكر أنني امتثلت لأمرها هذه المرة، لتعود وفي يدها بعض من

المطهرات وضمادات لتداوي قدمي. كانت تفحص الجرح كطبيب ماهر أو كأم؛ كأم لم تتعلم شيئًا عن المداواة لكنها كأم يغنيها قلقها واهتمامها عن المعرفة بالطب، فتصبح بالغريزة عالمة بكل شيء ينغص حياة فلذة كبدها. أنهت مهمتها بمهارة ثم قبلت خدي واحتضنتني بحنان بالغ قائلة:

- "لا تقلق، سترتاح غدًا وتكون بخير".

وددتُ لو بكيت بين أحضانها، لكني لم أفعل. ولم أفهم أي شخص تعاملت معه منذ حين. انقضى الأمر، واعتذرت عن موعدها مع أعضاء الجمعية ثم أكلنا شيئًا من الطعام، وأصرت الهانم على أن أنام معها لحين أن توضب غرفتي غدًا. مكثت مع الهانم حوالي ثمانية أشهر، وخلال تلك المدة علمت أن ما خبرته باليوم الأول لم يكن من قبيل المصادفة أو نوبة عصبية مفاجئة، لكن كانت هذه هي عوائد الهانم. فأغلب الأمور بالنسبة لها عبارة عن أوامر لا بد من تنفيذها دون نقاش، إما ذلك وإما العقاب الفوري. ولا عقاب في الدنيا يعادل عقوبة الهانم وما تحتويه يداها من قوة غاشمة قادرة على لسع الجسد بشكل أفظع من السياط.

حتى أتفه الأمور كانت تستلزم بالنسبة لها عقوبة، فأتذكر يوم نسيت وأنا أحضّر لها الغداء، وقد وضعت الخيار في السلطة بدلًا من الجزر. زفرت زفرة قوية وهي جالسة على كرسيها، ثم تناولت من وسط الطاولة مزهرية التزيين، قبل أن تقذفها جهتي لتلتف في الهواء ثلاث مرات لتصطدم بعنف بوجهي مسببة لأنفي النزيف. ومع ذلك فإنني لا أعلم متى وقعت في حب الهانم، وهو حب لا يشبه البقية، بمعنى أنني لم أتخيلها أبدًا في وضعٍ مُشينٍ أو مخِل، رغم أنني كنت أحب مشاهدتها دومًا وهي نائمة لكي أطيل النظر إلى صدرها المشدود رغم كبر سنها، وهو يعلو ويهبط بفعل توتر أنفاسها. وقد منحتني الهانم بالصدفة فرصةً لعدم تفويت هذه المتعة، فخوفها من الظلام الدامس كان يحتم عليها أن تبقي جزءًا من الباب مواربًا حتى يتسلل شريطًا خافتًا من ضوء الصالة مانحًا لها الطمأنينة. وهكذا كنت أتخذ لتلك المتعة مقعدًا أمام الباب متفرجًا.

ولا يهم متى وقع هذا الحب تحديدًا بقدر أنه حدث سريعًا، فلم يستغرق حبي

لها وقتًا. يمكنني القول أنني أحببتها منذ اليوم الثاني أو الثالث أو أنني فعلت ذلك لحظة أعطتني كيس البسكويت، وإنما كان حينها حبًا كامنًا ينتظر الفرصة لكي يعلن عن نفسه. وهذا الإعلان لم أعبر عنه بكلمة، ولم أتخذ له فعلًا بالمعنى الإيجابي، وإنما تمثل، بكل بساطة، في خضوعي التام لها، وفي تقبل زوبعاتها العاصفة، وعنفها المفاجئ دون تذمر أو تبرم، بل تقبله بكل حب وطواعية.

وجدتني أتقبل منها ما لم أتخيل أنني أستطيع تقبله أبدًا، فبعد أسبوع أعلنت أنها أخذت رمسيس بعيدًا عن البيت لتودعه في ملجأ للحيوانات، دون أن تخبرني بقرارها ذلك، فما كان مني إلا أن قلت لها بكل هدوء: "بالتأكيد سيكون أفضل حالًا هناك".

ثم اتخذت قرارًا جديدًا بأنه غير مسموح لي بالخروج من البيت ولا الذهاب لأي مكان خارجه، ولم تمهلني فرصة لتقبل قرارها، وإنما فرضته عليّ فرضًا بإغلاقها للباب من خلفها حين تخرج. وهكذا كان يمضي يومي؛ أستيقظ من النوم، لا شيء لأفعله إلا تنظيف قاذورات الهانم التي تخلفها وراءها، أذهب إلى النوم، وهكذا دواليك. إلى أن أتى القرار الذي سيقلب حياتي رأسًا على عقب.

قبل لقائي بالهانم، كنت أجيد نظريًا القراءة والكتابة، إلا أنه كان لا يمكنني أبدًا أن أفهم شيئًا إذا قرأت أو أكتب شيئًا آخر غير اسمي. وقد تغير هذا تمامًا فيما بعد بفضل الهانم، فصرت نهمًا للقراءة وحب الثقافة، على أنه حين أتذكر الآن ما حاولت الهانم زرعه في حينها من أفكار، لا أملك إلا أن ابتسم سخريةً. فقد كانت البداية حين أعلنت وبكل وضوح قرارها الثوري، وهو أنني سأصبح نسويًا، ولأنني لم أكن أعي بعد ما معنى أن أكون نسويًا فقد اندفعت مصارحًا الهانم: "صحيح أنني تقبلت كل شيء، لكن لا يمكنك أن تنتزعي مني أغلى ما أملك لأصير "نسوان". أنا رجل فقط".

وكذا كان عليها أن تفهمني ما تعنيه بقولها، فأشارت إليّ بإصبعها أن آتيها، ثم ركلتني على مؤخرتي وشدت على أذني وهي تهدر:

"يا غبي، افهم. نسوي ليس معناها أن تصبح "نسوان"، بل أن تدافع عنهم. وعلى

العموم إنه شرف عليك أن تعمل بجد لتستحقه. وسيكون لنا كل يوم حصة أشرح لك فيها مفاهيم النسوية".

وأتبعت قولها بصوت ناعم: "آدم، إنك تقدسني وتحبني، أليس كذلك؟ إذًا فلتقدس كل امرأة مثلي، لأننا نستحق".

ولم تكُ تعلم أني أفعل ذلك دون أن أصير نسويًا. هكذا كان قول الهانم الذي اتبعته في اليوم التالي بتنفيذ وعدها، فجلبت لي كتيبًا صغيرًا له غلاف جلدي أحمر، كُتب عليه بخط رقعة منمق صغير "مانيفستو للمرأة النسوية – بقلم لطيفة الشريف". وعلى حسب كلامها فقد لخصت به كل ما يخص النسوية بدايةً من إليزابيث ستانتون وإلكسندرا كولنتاي مرورًا بسيمون دوبوڤوار وبيتي فريدان، انتهاءً بمثلها الأعلى نوال السعداوي. وقد أحسست بنشوة لدى سماعي اسمًا عربيًا أستطيع نطقه من وسط تلك الطلاسم التي ذكرتها. لكن، للأسف انغلق فهمي على ما بالكتاب بالرغم من بساطته، ولم أفهم شيئًا منه عدا شذرات تتحدث عن ذنبي لكوني رجلًا. وحينما حاولت تبين معنى الكلام أكثر قابلتني الهانم بنظرة من أعلى لأسفل لم أفهم مفادها، وأعقبت بقولها: "ستصلح غلطتك هذه إذا أصبحت نسويًا".

ولكن اعترافي بقصور فهمي جعلها تبسط أكثر ما تحاول تعليمه إياي، ولهذا جعلتني أتجاوز كل صفحات الكتاب حتى وصلت للصفحة الأخيرة، والتي كان مدوّن بها بكل بساطة، مبادئ النسوية الست، وهاكم تلخصيها:

1- المرأة هي الخير الأسمى في الطبيعة.

2- الرجل أداة الطبيعة لقمع المرأة.

3- المرأة ضحية العولمة والرأسمالية الساحقة والرجل.

4- الشر في اللغة المنحازة.

5- للمرأة كل ما يمتاز به الرجل.

6- للمرأة كل ما تمتاز به المرأة.

"عولمة؟ رأسمالية؟ وأية لغة منحازة؟" وبالطبع فقد اختصرت لي الهانم بقدر المستطاع معاني تلك المصطلحات، لكن أكثرها إثارةً بالنسبة لي كانت فكرتها في اللغة.

"فعلى امتداد العصور كان للغة طابع ذكوري، رسخت من اضطهاد المرأة ومنح الأفضلية للذكر، وخلق لا وعي ظالم للأنثى". وأعطت لذلك مثالًا صارخًا: "إن اللغة تعطي معنًى إيجابيًا للفظ المذكر، وبمجرد أن يصبح مؤنثًا فإنه يكتسب قيمته السلبية. فالرجل إن كان على حق يقولون عنه "مصيب"، أما وإن كانت المرأة هي من على حق فيقولون عنها "مصيبة". فأي ظلم هذا للمرأة يكمن في اللغة؟ إننا ضحية اللغة".

لم أمتلك من أمري إلا الإجلال للفكر النافذ للهانم، ومحاولة إرضاءها بحفظي لمبادئ المانيفستو عن ظهر قلب حتى أصبح نسويًا. وصرت أرددها ليلًا نهارًا، خفاءً جهارًا حتى كانت تتراقص أمام عيني أثناء النوم.

توالت الجلسات مع الهانم، وفي كل مرة كانت تلقنني مفهومًا جديدًا بالشرح الوافي، سواء من مفاهيم النسوية أو الماركسية، وهي الفلسفة التي تنتسب لها الجمعية. ولأنني لم أمتلك يومًا مهارات ذهنية لامعة، فقد استغرق إتقاني لتلك المبادئ المعدودة ما يربو على خمسة شهور، حتى ارتضت الهانم مني أخيرًا أدائي، وكان قرارها أن أشارك في اجتماع الحركة في الخميس القادم كمنظم له.

ولما جاء اليوم، عرفت ما كانت تعنيه بكوني منظمًا للاجتماع، كان عليّ أن أنظم الفوضى التي دائمًا ما تخلفها الهانم تجهيزًا للاجتماع، وتلميع الأرضيات وكؤوس الشرب ومن ثمَّ رصها على المنضدة، بجانب تجهيز الكراسي وترتيبها بشكلٍ عرضي حتى يتسنَّى للهانم إلقاء خطابها للحضور من المنصة. ولما فرغت من مهمتي كان كل لباسي قد اتَّسخ وابتل، فذهبت لتغييره لكن الهانم استوقفتني ومنعتني من مرادي، قائلة أنني الآن فرد "بروليتاري"، ليس عليه أن يخجل من هيئته التي تلطخت من العمل. ولم أعترض عليها، لأنها هي الأخرى كانت ترتدي لباسًا غير لائق بالمرة لما اعتبرته اجتماعًا رسميًا. فقد كان لباسها في غاية البساطة، كانت ترتدي بلوزة

فضفاضة مكشوفة الأكتاف وعارية نصف الصدر تقريبًا، وبنطال قماش مقلم، ولم يكن في لباسها شيء أكثر رسمية من جزمتها السوداء.

ولما دقت الساعة السادسة بالضبط، كان كل القوم بالباب، وكان أول الداخلين هي مدام مايا بصبغة شعرها الصهباء وأحمر شفاهها الفاقع، ثم تبعتها أستاذة مفيدة بقوامها الممشوق وحيويتها الفائقة، ومدفوسًا وسط حشد الداخلين قفز أستاذ لويس بقامته القصيرة وبذلته التي تبدو عليه كقطعة واحدة نحو الداخل، وهو يحمل بيده الكتاب ذاته "الجنس الآخر".

لم يتبقَ سوى اثنتان، وهما الآنستان فوزية وميرال، اللتان تقدمتا نحو مقعديهما بصمت متلاصقتين، ممسكتين بأيدي بعضهما البعض.

"أوريڤوار". ظهرت الهانم للحضور ممسكة بيديها كومة من الأوراق.

- "سعيدة بحضوركم اليوم. آدم، صب للضيوف عصيرًا حالًا".

فعلت كما أُمرت، ثم اتخذت مقعدًا بجانب الأستاذ لويس إلا أن الهانم أصرت أن أقوم وأجلس بجانب المنضدة، في الوراء تمامًا من ركن الصالة. نظرت لها نظرة استئناف، إلا أن نظرتها قضت بقرارٍ نهائي لا استئناف فيه. ثم قامت بالتوزيع على كل شخص من الحضور ورقة، معلنة أن موضوع اجتماع اليوم هو الآتي: "بحث في لغة أنثروبيولوجية محايدة وعلاقتها بنون النسوة في اللغة العربية وتاء التأنيث المتحيزة".

مطّ الأستاذ لويس شفتيه وهو يلوك السعوط السوداني قائلًا: "هذا موضوع شيّق، سيكون كذلك".

بعد ذلك صعدت الهانم للمنصة، وبدأت في تقديم موضوعها، معيدة كلامها عن ظلم اللغة البالغ للأنثى، ومساهمتها في النزعة العنصرية ضد المرأة، وأننا بلا شك بحاجة للغة جديدة تلغي الفروق بين الرجل والمرأة. جاءت أولى التعليقات من الأستاذة مفيدة، التي مدت جذعها للأمام واضعة ساقيها العاريتين إحداهما فوق الأخرى وقالت:

- "لقد حدث هذا بالخارج. سمعت أنه تمت ترجمة نسخة من الكتاب المقدس لا تحتوي على أية كلمات من شأنها أن تشير إلى النوع".

- "هذه خطوة عظيمة، لكن هل يمكن تحقيق مثل ذلك في اللغة العربية؟ اسمعوا يا أصدقائي، إن الأمر صعب تنفيذه، لكننا سنخطو نحو ذلك خطوة وراء الأخرى. سننشئ لغةً خاصة بنا، إن جاز القول سنخترع لغة جديدة. على أننا بحاجة للنقاش".

- "نعم، نعم. نحن بحاجة لذلك. كل عام وأنتن بخير يارفيقات، اليوم العالمي للمرأة اقترب...".

- "أستاذ لويس-كشرت الهانم عن أنيابها- لا نستخدم نون النسوة إلى أن نبت في أمرها حتى نهاية الجلسة".

- "نعم، نعم. ولكن إن قلت أنتم-وسرح الأستاذ لويس لحظة في الفراغ وهو يفكر- لا عليكم، لنكمل".

عادت الهانم للحديث: "إذًا يا رفاق، علينا أن ننهي سطوة اللغة علينا. هل هناك اقتراحات؟".

أنبرت مدام مايا للحديث: "لا يمكننا استخدام في أسماء المهن ما يدل على الجنس، لا يصح أن نقول رجل أعمال و سيدة أعمال، أو رجل إطفاء.. إلخ. يجب علينا أن نكتفي مثلًا بعامل الإطفاء".

أثمن الحضور ملاحظة مدام مايا وأتبعتها الهانم بالتأكيد على أنها ضمنت تلك الملاحظة في دراستها. رفعت الآنسة فوزية يدها فيما بعد ذلك واقتحمت النقاش بتعليقها:

- "أنا عن نفسي أريد إزالة ألف التثنية. إنها تفرقة عنصرية كذلك، كل اثنان "هو" واحد، كما أنا وميرال".

ثم شدَّ الاثنتان على يدي بعضهما البعض بحنو بالغ مبتسمات لبعضهما البعض. وأكدت الآنسة ميرال أن على الحب أن ينتصر في كل أشكاله.

- "هذه ملاحظة جيدة، لقد تضمنتها دراستي بالفعل. سنزيل الحواجز ولا يكون هناك غير المفرد والجمع". أكدت الهانم.

حينها قفز الأستاذ لويس بكامل قامته إلى الأرض وبصق قطعة من السعوط وأبدى، وهو مستثار، ملاحظة حول ما يُقال:

- "ولكن، مع ذلك، ماذا سنفعل حيال نون النسوة وتاء التأنيث، هل نبقي عليهما أم نحذفهما؟".

- "أستاذ لويس، اسمها نبقي "عليهم" أم "نحذفهم". لا ألف تثنية، لا عنصرية". كان الصارخ هي الآنسة فوزية.

- "أعتذر "منكم" يا رفيقات، لقد نسيت".

تدخلت لطيفة هانم لترد على تساؤل الأستاذ لويس:

- "لنقُل أننا سنحذفهم".

- "ولكن إن حذفنا تاء التأنيث، أفلا نكون سلمنا اللغة للرجل فقط؟".

وتعالت الهمهمات حول ملاحظة أستاذ لويس الثاقبة، الذي قفز مجددًا لكرسيه وهو يلوك سعوطه منتفخ زهوًا وكأنه أحرز نصرًا. وبدأ اللغط يعم المجلس.

- "ملاحظة رائعة أخرى يا أستاذ لويس، لقد ضمنت هذا في مشروعي كذلك. عندك حق، يجب ألا نسلم اللغة للرجل، أي اقتراح طيب بخصوص ذلك؟".

- "لنحذف المفرد كذلك، فلا أهمية له. لنكتفي بالجمع، ويكون كله عبارة عن لفظ موحد للخطاب فنقول "أنتم"، وإن كان ضميرًا نقول "هم". سيكون هذا موحدًا على الكل".

كانت هذه ملاحظة الأستاذة مفيدة.

- "بلا، لنبقي على المفرد، ونجعل تاء التأنيث هي الأصل في كل الكلمات، حتى لا نسلم اللغة للرجل".

قالت مدام مايا ودار على الفور على وجه الهانم حيرة بالغة وصمت مطبق. كان يمكن بكل بساطة تبيّن أنها لم تخطط لكل ذلك، قطعت الهانم الصمت وأمرتني بأن أقوم لأصب للضيوف شرابًا مجددًا. وأخذ الجمع استراحة قصيرة، ثم عادوا للنقاش. وكان بدايته هو قول الأستاذ لويس:

- "أنا أتفق مع مايا، لنعمم تاء التأنيث. أنا مثلًا يشرفني وعلى استعداد تام لأن أغير اسمي للويزة. سيكون اسمًا جيدًا".

ضحك الجمع من حوله تندرًا بتشابه اسمه الجديد مع "لويزة زيتز"، مؤسسة اليوم العالمي للمرأة.

- "هذا ما أقوله حقًا يا أستاذ لويس، هذا ما قلته في بحثي".

في هذه اللحظة، كانت الهانم قد ظنت أن النقاش انتهى، وأن الاجتماع قال كلمته بالاستقرار على تنميط اللغة بإضافة تاء التأنيث لكل الكلمات المفردة، ونون النسوة لكل الكلمات الجمع، وحذف ألف التثنية. إلا أن سؤالًا جاء من الأستاذة مفيدة مجددًا:

- "ولكن يا رفاق، أفلا نكون هكذا اخترعنا لغة تظلم الرجل؟".

انهالت التعليقات على ملاحظة الأستاذ مفيدة فورًا:

- "مفيدة، ألا ترين؟ لقد ظللنا طوال العمر منسحقين تحت حكم أبوي ذكوري. آن الآوان للمرأة أن تظلمهم".

- "آنسة مفيدة، إنكِ Feminste، ففيم يهمك الرجل؟ إن الرجل يشرفه أن ينتسب في كل شيء للمرأة. إنها الأصل، إنها الطبيعة. صدقيني، أؤكد لكِ ذلك".

كان القائل هو أستاذ لويس.

- "ولكن يا رفاق، في خضم نضالنا من أجل المرأة فإننا نناضل للبروليتاريا ككل، الرجل البروليتاري له حق مثلنا. إن البرجوازية والأرستقراطية ستستغل هذا الاقتراح ضدنا. أنا آسفة".

رفضت الآنسة مفيدة هجمتهم ضدها بهذا القول، وبدا وكأن النقاش سيعود لنقطة الصفر بدعوتها تلك، لكن الآنسة ميرال التي صمتت طوال الجلسة غير مهتمة إلا بتشابك يدها مع الآنسة فوزية، علقت بقولها:

- "أبواق الذكورة لن تصمت على كل حال. علينا أن نحمل كل شيء في بوتقة نسوية، وهكذا ستكون أبواق صياح الذكور على الأقل لها ما يبررها".

تدخلت على الفور الآنسة فوزية لتدعم قول صديقتها: "معكِ حق يا ميرال. أما يا آنسة مفيدة، فإن المرأة تحملت ما يكفي. بالعودة للوضع الأول، فإن الحق يحتم أن ينال الرجل جزءًا من الظلم الذي كابدناه، ونحن مع ذلك سنظل معادين للنسوية الرأسمالية. نحن ماركسيات للأبد وسنناضل لأجل البروليتاريا الفقيرة".

وهنا بالذات تعالت صيحات قوية تؤمن على قول الآنسة فوزية وتشجعها بقوة، وكانت الأيادي في الهواء لا تتلاحق من حماستها، إلى أن هدأها رجوع لطيفة هانم للحديث:

- "آنسة مفيدة، ألا تتذكرين شيئًا مهمًا، شيئًا أغفلتيه؟ إن اللفظ بمجرد أن يصير مؤنثًا يكتسب قيمته السلبية، لقد جعلت الأستاذ لويس نائبًا للحركة، أتعلمين لماذا؟ حتى لا يكون هناك امرأة مكانه تُسمى بـ"نائبة" المجلس. أنا أدعم كلام بقية الأعضاء، ليتحمل الرجل جزءًا مما عانيناه. ماذا أستاذ لويس؟ نعم، ملاحظة نافذة. لقد ضمنت هذا بالفعل في مشروعي".

ولم تنطق الأستاذة مفيدة مجددًا، وبدا أن كل الأعضاء قد اجتمعوا على الكلمة الأخيرة؛ ستكون هناك لغة ظالمة للرجل بدلًا من المرأة. في تلك الأثناء، جاء صوت من الخلف، جعل الجميع يديرون ظهورهم له. أما الهانم فقد جحظت عيناها على إثر سماعها ما سمعت، وفقدت القدرة على النطق. جاء الصوت سائلًا:

- "ولكن أليس في لغتنا الآن بالفعل ما يمكن أن يكسب اللفظ المذكر صفة سلبية، ويجعل للفظ المؤنث صفة إيجابية؟ مثلًا، إننا حين ننعت أحدهم بالكلب فإننا نقصد به الإهانة، وهو لفظ مذكر. أما لفظة قطة المؤنثة فلا تدل إلا على الجمال والرقة. أنا

أقول فقط أن اللغة ربما ظلمت الرجل والمرأة معًا."

يا للغباء! ذلك الصوت الذي نطق لم يكن إلا صوتي. ولم يعره أحد جوابًا، فقد اكتفى الجميع بتحديق غبي إليّ، وهم يديرون أنظارهم بيني وبين لطيفة هانم، التي ظلت كذلك صامتة لا تدري جوابًا.

"آدم.. هذا طرح جريء، أليس كذلك؟". سأل الأستاذ لويس وهو يلتفت للهانم مجددًا.

- "لا أستاذ لويس، إنه ليس كذلك. إنه طفل غير مثقف وغير واعٍ، لا تؤاخذوه على قوله. إنه غبي كالبقية. لكن لا تقلقوا، إنه يحتاج لمجهود زائد حتى يصبح نسويًا شريفًا، سأحرص على ذلك".

- "نعم، لا أحد يصبح نسويًا بالساهل. لقد خلعت أزواجًا ثلاثة إلى أن أصبحت نسوية أخيرًا".

كان ذلك آخر ما قيل من مدام مايا، قبل أن ينفض الاجتماع في الحال بقرار حاسم من الهانم، بدعوى أنها قد شعرت بصداع حاد لا تستطيع معه الاستئناف. كنت أعرف ما يعنيه هذا، وأي أمر ينتظرني فور انصراف الحضور. كدت أتعلق في ذيل أحد المنصرفين هربًا، لكن هذا لن يفيد. سأفعل كما تعودت؛ سأتقبل ما تفعله الهانم.

- "أنا أريد قولًا واحدًا، أطلبَ منك أحد الحديث؟ لم يطلب أحدًا. لقد أكدت عليك أن وجودك هو وجود منظم فقط، أتظن نفسك الآن فيلسوفًا يا كلب لترد على كلامي؟".

كانت الهانم تصرخ بوجهي بعد انصراف الحضور. كان بودي لو أوضحت لها أن نعتها الدائم لي بالكلب هو ما جعلني أفكر في ذلك الخاطر الذي لم أخطط له، لكنها لم تمهلني الفرصة.

- "ليكن بعلمك أنه لا اجتماعات ثانية أبدًا. ستنحبس هنا كالكلب".

"ليكن، عندكِ حق". رددت عليها والعبرات تنحبس في عيني.

- "آخ، يا لك من مقرف! أتظن أن قبولك للأمر يعني أنه انتهى؟ تعالَ هنا".

وركضت الهانم ورائي حتى أمسكتني من ياقتي، ثم جذبتني منها وهي تجرجرني نحو سريرها، وأفردت جسدي عليه. وحينها بدر منها سؤال غريب، وهو إلى أي مدى أحب رمسيس؟ فأخبرتها أنني أحبه بقدر ما تعلقت به فقط.

- "إذًا أيمكن أن تكون تحبه أكثر مني؟".

- "ليس كذلك. أنني أحبكِ أنتِ".

- "وماذا إن أخبرتك أنني لم أودع رمسيسك هذا دار رعاية، وإنما رميته في الشارع من حيث أتى؟".

- "ليكن... ولكن...".

وفي تلك اللحظة أحسست بغضب عارم ونار تشب في صدري. رمسيس الذي أتيت به معي إلى هنا، إلى مكان ننشد فيه الاحتواء والطعام، كيف يكون حاله الآن في الشارع؟ أيكون قد كبر وعثر على مكان وعشيرة يحتمي بها، أم مات قبل ذلك الآوان؟

- "ولكن أليس من الممكن أنه تأذى الآن؟" استكملت حديثي.

- "وفيم يهمك أمره؟".

- "لا شيء".

- "آخ! آخ! حتى هذا لا يعنيك في شيء. مقرف! سنرى إن كان هذا لا يعنيك كذلك".

ثم مالت الهانم عليّ وأنا ممدَّد، وراحت تخلع الثياب عني قطعة بعد قطعة حتى لم يصبح هناك ما يسترني سوى خرقة اللباس الداخلي. حاولت القيام لكنها مالت عليّ بجسدها أكثر من ذي قبل، وقيدت يداي بقبضتها العاصرة، فحاولت الرفس برجلي، لكن جسدها كان يجثم عليّ بكل حمله الثقيل، ملاصقةً جسدها المتفصد عرقًا بجسدي العاري، حيث لم يصبح هناك مجالًا للحركة. وحينما فعلت ذلك، هوت

عليّ بشفتيها محاولة تلثيم شفتاي.

"لا يمكن...". ومايلت رأسي كالمجنون يمينًا ويسارًا متفاديًا تلثيماتها، فما كان منها أخيرًا إلا أن انزاحت عني لحظة، لم تدم طويلًا، ثم هوت عليّ مجددًا بكل ثقلها وهي تدفس وجهي بين جسدها المترجرج.

في لحظة أخيرة من ذلك الخبل لم يكن أمامي ما يمكنني فعله سوى الاستسلام لجموحها. لكن لم أفعل بكل بساطة، فبكائي وعويلي لم يفد معها بشيء، ولذا في تلك اللحظة بادرت بالمثول لها، ولم أعد أقاوم بعد. ولما آمنت الهانم لركوني، ارتخت قبضة جسدها عليّ، فما كان مني بكل سرعة إلا أن مدت يدي نحو الكوميدينو الملاصق للسرير، لأستل منه كوب الماء، هاويًا به بكل قوة على رأسها. تخبطت كالمسعورة على السرير غارقة في دمها، لكنها لم تستسلم بعد. لحظات قليلة وكانت تطاردني مجددًا وأنا أهددها بنصل الكوب المكسور. في أثناء ذلك، حاصرتني إلى أن أدخلتني عمدًا لإحدى الغرف، ثم أغلقت عليّ بابها.

في الخارج، كان يمكن سماع صوت الهاتف، وهمهمات غاضبة منها تنبّئ بالتهديد والوعيد. ومضت ربع ساعة ثم سمعت صوت باب الشقة يُفتح، وتبعه باب الغرفة الذي قد كُسر. كان أمين شرطة يقودني للخارج عاريًا وهو يزفني بالسباب والضرب، ومن ورائه الهانم تنتحب شاكية من سوء سلوكي:

- "لقد آويته عندي شهور. عاملته كابني، وانظر إلى أين انتهيت؟ حاول التحرش بي وأنا أدفعه عني ولما لم أرضخ له شق رأسي كما ترى".

آي، آي! فعلتها بنت الكلب! لكن بمَ يفيد أن أقاوم خطة الشيطان؟

(4)

سيكون من المنطقي لو أنني كرهت الهانم الآن على ما فعلته بي، بعدما أذاقتني مُر العذاب معها، والذي لا يُقارن أبدًا بما أوقعتني فيه بعد ذلك من قاذورة سأتمرغ بها في المهانة والذل، على أنني لم أفعل ذلك بالضبط.

بهذا الشأن، يحاول علماء النفس إقناعنا بأن قواعد النفس البشرية تكون في مثل حتمية العمليات الحسابية وأن تلك القواعد كترتيب الأرقام المنطقي؛ ١،٢،٣،٤.. أما ما أنا متأكد بشأنه فهو أن قواعد النفس البشرية هي ٢،١،٤،٣.. ولهذا السبب بالضبط فإنني ما زلت محتفظًا بما يكنه قلبي للهانم من حب، أو على الأقل لم أبغضها يومًا على ما فعلت.

فور أن تم القبض عليّ، توجه بي أمين الشرطة إلى القسم حيث بت بضعة أيام في الحجز إلى أن تمت التحقيقات، وشهدت الهانم بالواقعة. ولما كانت الهانم نافذة العلاقات مع دائرة القسم بما يحتمه عليها مركزها كناشطة حقوقية، فقد تم إغلاق الواقعة سريعًا على ثبوت تهمة التحرش.

كدت أقضي ستة أشهر في الحبس، وليتني قضيتهم هناك بدلًا من الجحيم الذي ذهبت إليه، فعندما أثبتوا هويتي اكتشفوا أنني لم أتم الثمانية عشر بعد، وما زلت أصغر من ذلك بأربعة أشهر، ولهذا فسوف أقضي عقوبتي في مصلحة الأحداث.

***

تم ترحيلي أنا واثنين من الصبية في صبيحة يوم غائم، ولما وصلنا إلى منطقة المرج استلمنا مندوبٌ آخر سيودعنا في المستقر الأخير، وقد كان غير بعيد من حيث أخذنا. كانت مصلحة الأحداث تقع على أطراف من الصحراء، وتحاوطها جدران شاهقة مدهونة بالكلس الأصفر، ولاستئمان العواقب فقد كانت الجدران الشاهقة لا تكفي، ولذلك ألحقوها بسلك شائك.

دخلنا من باب المصلحة الحديدي الكبير مرتجفي الرُكب، وسط حراسة مشددة لا تنبئ بالخير ولا تتوافق مع جرائمنا، حتى كان يُهيأ للداخل بأنها ستكون النهاية.

وأظن أنهم لو فهموا إحساسنا حينها لسرحونا فورًا، مدركين أننا قضينا عقوبتنا ويزيد بهذا الخوف والرعب.

كان حسين، أحد الصبية الذين تم ترحيلهم معي، والذي سيشاركني حفلة الاستقبال، قد بال على نفسه. ولما نظرت إلى عاصم الذي سوف يجاورني بالعنبر فيما بعد، كان قد بلّل نفسه هو الآخر، والأفظع هو إصابته برعشة تشنجية أعقبها فقدانه لوعيه. وقد بان لنا حينها أن الله يحبه لمّا أفقده وعيه، لأنه لن يشهد ما شهدناه.

أخذوا عاصم مجرجرًا إلى العنبر الذي سيقيم به، أما أنا وحسين فقد أخذونا لإنهاء إجراءات التفتيش أولًا ثم قادونا بعدها لعنبر يدعونه تهكمًا باسم عنبر الاستقبال، حيث اصطف على جانبيه سطران من عشرة أطفال، الذين لم يبدُ عليهم ولو علامة واحدة أنهم كذلك، مستقبلين إيانا بوجوه متجهمة تتلظى حقدًا وحنقًا. وكان ما بين الصفين، في نهاية ممر عنبر الاستقبال، لوحًا آخر متوسط الحجم من اللحم والدم، يبدو أنه زعيمهم، وقد وقف مستنفرًا لدخولنا. كان يشد بيده على هراوة ضخمة مطرزة بالدبابيس بالكامل، أما بقية الأطفال فكانوا يحملون سيلًا متنوعًا من أدوات التعذيب؛ هراوات أقل حجمًا، قطعًا مدببة من خشب الأسِرة، مواسير حديدية، خراطيم سباكة، وكان هناك طفلًا ضئيل الحجم، لم يستطع إلى كل هذا سبيلًا فاكتفى بحمل حلة الطبخ بيد وغطاءها باليد الأخرى.

وما أن تجاوزت قدمي أنا وحسين عتبة العنبر حتى هبّ كبيرهم هذا الذي يتوسطهم في نهاية العنبر، وأعطى بيده إشارة الهجوم معقبًا إياها بالتصفير للجموع الملتهبة والمتحفزة لاستقبالنا.

كان حسين من الذكاء بحيث ما أن رأى الجموع المجتاحة تتقدم نحوه حتى انبطح متزحلقًا ببطنه على الأرضية، لينسل من بين أقدام الصبية إلى الناحية الأخرى من العنبر. وهكذا انقسم الأطفال إلى فريقين، فريق يهتم بحسين في نهاية الممر من العنبر، وفريق آخر يهتم بي بجوار باب العنبر. حاولت الالتفاف والهرب، لكن كان يسد الباب جسدي اثنين من أمناء الشرطة، اللذان أطاحا بي بقدميهما نحو أحضان

الأطفال وهما يضحكان تندرًا ويسألان الأطفال ألا يدعوا بأجسادنا أي ذرة من القوة تمكننا من الحراك.

تلقفني خمسة منهم محكمين قبضتهم عليّ وأنا أحاول التملص، ولكن جاءت ضربة بغطاء الحلة فوق رأسي مصحوبة بصرخة محارب أمازوني، لم أشعر بعدها إلا بالدوخة وآلام مبرحة تغزو كل جسدي، دون مقدرة مني على مقاومتها سوى بالتلوي على أرضية العنبر، وأنا أحاول مفاداة الضرب بيدي. لكن يركع طفل الحلة على الأرض ويكتف يدي، فيما يبدأ بقية الأطفال بتجريدي من الملابس.

- "حسين".

صرخت ولم أتلقَ ردًا سوى أصوات الهرج والمرج والأطفال يصيحون ويزعقون فرحًا بما يفعلون. لم أعلم متى انتهت حفلة الاستقبال، إذ صحوت مضطربًا على طسة ماء عنيفة بوجهي، استفقت معها لأنظر من حولي وأجد جسد حسين ملقى بجانبي عاريًا، لايستره شيء، مضرجًا بدمائه وعرقه وماء الأطفال الذي بالوه عليه وقت الحفلة. أخذتني الرجفة لا لشيء إلا لأنني خشيت أن أكون عاريًا متمخضًا في الدماء والماء النجس مثله، فلم أنظر إلى حالي، لكنني أيقنت أنني كذلك. نظرت لمن غمرني بالماء، فإذا هو قائدهم بالأمس. فزعت وزحفت للوراء لكنه اقترب مني وقدم لي كوبًا من الماء قائلًا:

- "لا تخف، إنك حي، وهذا يعني أنك اجتزت الاختبار بنجاح وفعلت المطلوب. خذ هذا واستر نفسك".

ورمى لي بسترة نوم زرقاء رثة مليئة بالخرق والأوساخ، سترت نفسي بها على الفور، ثم مد لي يده وأسندني لكي أقف.

- "هيا، لا تنظر لزميلك".

وأخيرًا أخذوني إلى حيث العنبر الذي سأقيم به، كان يتراص على كل من جانبيه عشر بسطات مرتفعة من الإسمنت، حسبتهم أماكن للاستراحة بدلًا من المقاعد، لكن كانت هذه هي الأسّرة التي سننام عليها. كنت أتقدم للداخل مطرق الرأس، متحاشيًا

نظرات الأطفال المتحرشة لي، إلى أن ناداني أحدهم فرفعت رأسي، لأجد عاصم وقد استقر على بسطته مشيرًا لي أن آتي بجانبه. جلست بجانبه فمسح على كتفي ليواسيني بكذبٍ واضح لما حل بي، وقد كللت وجهه ابتسامة واسعة، ابتسامة حقيقية بالنصر لأنه أفلت من الحفلة، منتشيًا بحكاياتي عما حل بنا بالداخل.

كنت أحسب أن الله يحب عاصم، ولذلك أنجاه من العذاب المهين الذي تعرضنا له، لكن ما كان للأمر علاقة بلطف وحب الله له، وإنما لتخطيط ومكر العبد لله، الذي علم قبل ترحيله بقصة الحفلة، فابتكر هذه التمثيلية حتى ينجو منها، وقد كان تمثيله في منتهى الإقناع. قال لي متفاخرًا:

- "لتنجو من أولاد الكلب عليك أن تكون ابن كلب مثلهم، أليس كذلك؟ هئ هئ".

كان الصبية حينها في طريقهم للخروج للإفطار، لكن للحظ العاثر، وعلى إثر قهقهات عاصم، سمع أحدهم ما تفوه به، ليندفع مبلغًا نباطشي العنبر الذي أدرك الأطفال ليعيدهم مجددًا للداخل وهو يشرح لهم أي خدعة خدعهم بها هذا الغر - ويشير لعاصم، الذي نظر إليهم مذعورًا. تنحيت عن طريق الطوفان الغاضب الذي كان في طريقه لعاصم، معلنًا لهم أنني قد تلقيت نصيبي من التعذيب بالفعل، ليستفردوا به وحده ويذيقونه نذرًا يسيرًا مما ظن أنه أفلت منه.

كان منظره يعصر القلب وهو يحاول التملص من بين الجموع، وما كان يعصر القلب لغاية العذاب هو إلى أي مدى كان يستمتع الصبية بالتعذيب، بإهانة روح أخرى والتنكيل بها، بتدنيس كل ما تمكنهم أيديهم من تدنيسه، بدايةً من التعرية والتجريد من الملابس، إلى صب جميع اللعان والسباب، واستباحة الجسد. كان ذلك باختصار يجبر القلب على البكاء.

تمدد عاصم على الأرض وهو يئن ألمًا، والصبية في طريقهم لتناول الفطور بعدما أنهوا مهمتهم وكأن شيئًا لم يحدث. زحزحته إلى حيث بسطته وانتظرت بجانبه، ولما اطمأننت إلى أنه يتنفس، صرفت تفكيري إلى حسين الذي تأخر مجيئه. لم يأتِ حسين في ذلك اليوم، ولا في الأيام التالية، والحقيقة أننا ما رأيناه بعد ذلك أبدًا، والأهم أننا لم ندرِ ما أصابه، وكان لا يمكنني أن أمعن في معرفة ماذا أصابه، لأنه،

وبكل بساطة، كانت الحياة في مصلحة الأحداث لا تعطيك الوقت الكافي للاهتمام بأي شأن آخر عدا شأنك.

كانت الحياة تنحصر في طوابير مملة لا طائل منها إلا إماتة كل حدود يمكن أن يتميز بها الفرد، كانت تلك الطوابير تتواجد في كل شيء؛ في التمارين، وفي إلقاء خطب الوعظ السخيفة، في الطعام والشراب، وحتى في الحمام. فلا يتهيأ لنا قضاء الحاجة إلا وباب الحمام مفتوح على مصراعيه أمام طابور من جماهير الأطفال المتفرجة، وإذا ما أطال طفلًا بالداخل فكانوا يقتحمون عليه الحمام ويخرجونه أثناء قضاء حاجته، ليتسنى لمن يليه في الدور أن يتخذ نصيبه في تلبية نداء الطبيعة. ولا يختلف أمر الاستحمام عن ذلك، فقد كان الوقت المخصص له عبارة عن حفلة استحمام جماعية، والكل يعبئ من ذات الطست، والأجساد المبتلة تترجرج متلاصقة بلا حرج. ولما رأيت أنه لا مفر من حفلات الاستحمام الجماعية تلك، اخترت عاصم كشريك للاستحمام أثق أنه لن يغدر بي. وعلى العموم فإن الاستحمام كان من الندرة هناك.

لبثت في الأيام الأولى أتحاشى كل اتصال ممكن مع أحد منهم غير عاصم، إلا فيما اضطر إليه من حديث كسؤال عابر أو إجابة مقتضبة على أحدهم. وأثناء ذلك كنت أكتفي بمراقبة الأطفال وأتعرف عليهم من بعيد، ولا يعنينا في حديثنا هنا سوى سيد سقارة، حكمدار العنبر والمسؤول عن إدارة شؤونه الداخلية. وبطبيعة الحال فقد كان مكروهًا في دخيلة كل الأطفال لكن ما كان أحد منهم يجرؤ على التعبير عن ذلك. ثم كان هناك عثمان عصفورة، وهو جثة ضخمة ويمثل الذراع اليمنى لحكمدار العنبر، الذي ينقل إليه كل صغيرة وكبيرة تحدث فيما بين الأطفال. والمثير للدهشة، رغم أن هؤلاء الاثنين كانا ممنوحان السلطة الرسمية من ضباط الشرطة، إلا أن السلطة الفعلية كانت بيد ثالث غيرهما، وهو حنا اليهودي، صاحب توريدات الكيف لأطفال العنبر. وكان الصبية يطلقون عليه حنا اليهودي رغم أنه مسيحي، والسبب في ذلك يرجع إلى أن حنا قد استغل أمر ديانته بذكاء شديد، حتى يكتسب بالمصلحة سلطة مهيبة لا تتوفر لطفل غيره. فديانة حنا كانت تسمح له، اتقاءً لتهم الفتنة الطائفية، ببعض الحرية، التي استغلها بذكاء لذلك الغرض. وما كان أحد يجرؤ أن يضايقه،

Telegram:@mbooks90

ليس فقط لمسؤوليته عن توريدات الكيف، وهو سبب كافٍ لإذلال كل من في العنبر وإعلان الخضوع التام له، بل لأنه أيضًا كان فتًى طيبًا سمحًا لا ينخرط في المشاكل، ويعز عليه أن يجعل أحدهم حزينًا بسببه.

كانت توريدات الكيف تشمل نوعان من السجائر لا ثالث لهما، وهما كليوباترا وإل.إم. التي كانت تُباع حصرًا لبرجوازي السجن من الضباط حينما تنفد منهم سجائرهم أو استغلالها في رشوة لإباحة بعض المتع المحرمة كطلب وجبات كشري من الخارج أو السماح للأطفال بلعب ساعة من الكرة. ولما كنت لا أملك المال لشراء هذه أو تلك فقد كنت أجمع أعقاب السجائر وراء الصبية لأنفثها، بالإضافة لتقربي من حنا لينعم على كل حين بسيجارة فرط صحيحة، أدخرها لجمع المال فيما بعد. وهكذا كان حنا هو أول من اتصلت به من الصبية، فيما عدا عاصم بالطبع.

ولأنني كنت أتحاشى أي اتصال مع بقية الأطفال، فقد أثار ذلك حفيظتهم، بناءً على نفس المبدأ الذي تشربوه من إدارة المصلحة، وهو أنه ليست هناك فردية، ليست هناك حدود دنيا يتحدد على أساسها شخصية كل فرد، بل الكل متماهٍ، والكل يرضخ للقوانين والعُرف، ومن العُرف ألا أختار أحدهم لحديثه دون الآخر. وإذ كانوا يجتمعون في تمام الساعة الثامنة كل يوم بعدما ينتهون من طابور العشاء، بعث إليّ سيد سقارة بطفل جاءني يتبختر في مشيته بلباسه الداخلي وفانلته الرثة التي تكشف عن رقبة مشوهة بآثار حروق. سألني أن انضم إليهم في لعب الورق فرفضت، ولكن نظرته المحملقة والمحملة بالتهديد جعلتني أقوم من فوري معه.

جلست معهم وهم مستغرقون في لعب الورق دون أن يعيرني أحدهم الاهتمام، إلى أن رفع سيد سقارة رأسه إليّ بكسل متظاهرًا بالتركيز في اللعب وقال متهكمًا: "انظروا من جاء، البيه ابن المأمور رضي عنا أخيرًا".

هممت أن أرد لكنه ترك الورق وانحنى بجزعه ناحيتي بحركة مفاجئة ثم زر عينيه وقال بخبث ضاحكًا: "أما يعجبك أحد منا؟ وكأنه لك ذوق معين يثير شهوتك".

فهمت ما يرمي إليه سيد سقارة ودعوت الله ألا يكون أفشى السر أو أن يكون ما خمنته خاطئًا. حاولت استمالته ولكنه انبرى بسؤاله زاعقًا أمام الصبية:

- "ألا تريد أن تقول لنا فيمَ جئت؟ لا تخف، يمكنني أن أخبرك بسري. لقد قتلت والدي لأنه رفض منحي عشرين جنيهًا. أتجدني أمزح؟ والله فعلت. كنت مستيقظًا في الصباح يتملكني الصداع من الشرب الليلة السابقة، فطلبت منه عشرين جنيهًا لأشرب الليلة أيضًا. رفض البخيل، فأكرمت أنا عليه بأن يصعد بجوار ربه".

هتف الصبية لشجاعته الفريدة، وقال أحدهم متضامنًا: "لا يهمك أمره، إن لم يصدقك فنحن نصدقك".

أشار لهم سيد سقارة بيده أن يصمتوا فرضخوا لأمره وعاد يستكمل حديثه: "سأعطيك حقك في كتمان السر، حاشا لله أن أفضح مسلمًا هكذا بلوشي. سنلعب لعبة، إن كسبت فلك سرك وحدك، وإن خسرت.. فالسر للجميع".

وأخذ ورقتين من ورق اللعب منهما الشايب وورقة أخرى: "حسنًا، هذه لعبة شايب مصغرة. ستسحب ورقة منهما.. وأنت تعرف بقية القوانين".

- "أهناك لعبة أخرى لا أعتمد فيها على حظي؟".

ضحك الجميع مما قلت، ولم يكن هناك بدًا من الاعتماد على حظي المشؤوم الذي أسفر عن اختياري للشايب. أفرد يده متظاهرًا بأنه لا يملك من أمره شيئًا وأن الأمر قد قُضي، ثم ذهب ليجلس على بسطته ودعا الصبية ليتحلقوا من حوله منتظرين إعلان النبأ، فهتف لهم وهو يذيع السر بحماس شديد فرحانًا بالفضيحة:

- "هذا البيه جاء في قضية تحرش، لقد تحرش بامرأة أكبر من أمه".

"سافل". قال أحد الأطفال الذي جاء بعدما تعرض في المواصلات لنصف سيدات مصر القديمة.

"أين كانت مروؤتك؟". قال آخر والذي حُبس لأنه كان على وشك قتل أمه في محاولة سرقة مدخراتها من الذهب.

"أيها الوقح، أثرى قد نبت لك عضو بعد؟" سأل أحدهم ساخرًا.

- "لنكتشف ذلك".

ونهض الصبية يحاولون اكتشاف ذلك فعلًا، فركضت تجاه حنا ألوذ به، والذي لولاه لانتهى بي المطاف وسط حفلة استقبال جديدة، لن يجد الصبية وازعًا في تكرارها. حاولت جاهدًا أن أوضح لهم حقيقة الأمر، ولكن لم يصغِ لي أحد، وبدلًا من ذلك راحوا يطلقون فيضًا من السباب واقترح أحدهم تسميتي بلفظ لا يجوز لي قوله، وأخذ يهتف بذلك الاسم الجديد مخوفًا الأطفال مني. وحينما وجدت أن الأمر سيؤدي إلى تحاشيهم لي، حاولت حينها إثبات التهمة عليّ وإضافة المزيد من الفظائع عليها، مثل أن الهانم لم تكن الضحية الوحيدة لجرائمي، وأنني على استعداد تام لانتهاز الفرصة وهم نائمين لفعلها مجددًا إن لم يبتعدوا عني. وهكذا انقلب الأمر لصالحي، ليمنحوني عزلتي غصبًا دون مضايقات.

على الرغم مما كان بالمصلحة من فاقات وذل، إلا أنه ينبغي عليّ الاعتراف أنني كنت أشعر ببعض من الانتماء إلى هذا المكان. والسبب في ذلك على الأرجح هو أنني لم أكن اليتيم الوحيد به، فعلى الأغلب أن كل الأطفال يتامى مثلي. ومع أن معظمهم ما زال آباؤهم على قيد الحياة، إلا أن اليُتم الذي أقصده هو اليُتم الفعلي؛ شعور التخلي والهجران والوحدة. فكثير من الأطفال فور ذكر سيرة أهاليهم كانوا يرتعدون، وآخرون منهم كانوا قد قتلوا أحدهم بالفعل دون شفقة. ولهذا فإنه، وبطريقة ما، أحسست لأول مرة أنني بمأمن من أن يعيرني أحدهم بيتمي، بل كان على العكس، فحينما عرف الأطفال أنني يتيمًا أحسست بتعاطفهم معي، وصاروا يدعون لوالديّ بالرحمة والغفران، حتى أن جانبهم من ناحيتي قد لان وصاروا أكثر ودًا تجاهي. وذلك إلى أن أتى اليوم الذي سأشعر فيه بالعكس، بقيمة ما افتقده.

فذات صبيحة دافئة، اجتمع حشد الأطفال الغفير على نحوٍ عاجل في ساحة المصلحة، وهم يغوصون بأقدامهم في تربة الساحة المشبعة بمياه المجاري. وقد جمعنا مسؤول المصلحة بعد أن سرت شائعات مفادها أن زيارة هامة للمصلحة ستأتي في القريب العاجل. كان الكل بانتظار الإعلان عن حقيقة هذه الشائعات، التي يتمني الجميع لو أنها صحيحة. تقدم مسؤول المصلحة إلى المنصة بخطى مسرعة في لباسه الرياضي المكون من سترة ليمونية فاقعة وبنطال كحلي وحذاء رياضي.

وبعد مقدمة وعظ لم يعِرها أحد اهتمامًا، انطلق صراخ الأطفال فرحًا، بعدما أكد أن هناك زيارة بالفعل لأهالي الأطفال، وقد جاءت عن طريق مبادرة إعلامية بمناسبة عيد الأم.

- "إن المفاجئة التي فاجأتني بشكل خاص ليست الزيارة في حد ذاتها، وإنما كونهم يعلمون بوجودنا. لقد ظننت أننا بمخفى عن الجميع. هئ هئ".

قال مسؤول المصلحة، وعلى الفور حل الهرج والمرج بالمكان، ليس احتفالًا بتلك الأنباء السارة فقط، بل للعمل الشاق الذي كان في انتظار الأطفال في الفترة المقبلة تجهيزًا للزيارة. انقسم الصبية في الحال إلى ثلاثة فرق، كل فريق تعني بشأن ما، وفورًا بدأ النشاط يدب في كل أنحاء المكان. فذلك فريق ينزح مياه المجاري من الساحة ثم يفرشها بالرمال ويغطيها فيما بعد بسجاد النجيل الصناعي، وذلك فريق يجدد دهان أسوار المصلحة والحوائط المغبرة ويغطيها بألوان باهية للعلم المصري. ثم يتسلق سيد سقارة سلمًا شاهقًا، ليتحرك به بمهارة صعبة وبخفة مثل الأراجوز على طول الجدران المحيطة بالمصلحة، لينزع الأسلاك الشائكة من عليها. أما الفريق الثالث والأخير والذي كنت به، فقد كُلفنا بمهمة تنظيف كل شبر من المصلحة من القمامة، وإزالة أوساخ أرضيات المطابخ ومكاتب القادة والعنابر بالسلك والصابون.

كانت السماء تنفث اللهب في وسط النهار، والصبية مكدودون، ولكنهم بنفس راضية لا يتوقفون عن العمل، حتى أنه وفي مشهد عبثي منافٍ لكل منطق لاقاه المرء في ذلك المكان، راح مدير المصلحة يلح على الأطفال أن يستريحوا، ولمكافأتهم على مجهودهم، فقد أمر بتوزيع قطعة من الدجاج على كل طفل. ورغم ما كان بالدجاج من زفارة ودم منحبس إلا أن الجميع التهمه بنهم وبالٍ راضٍ غير منزعجين، وعندما نبهت عاصم لملاحظتي قال لي: "إنك تفرط في التدقيق. لا أشم بها شيئًا، حتى وإن كنت أفعل لأجبرت أنفي على ألا تشم". فأخذت بنصيحته السديدة وسددت أنفي بيدي وأخذت آكل مثلهم.

في الليل، حول الصبية العنبر لملهى ليلي صاخب، فقد كون الأطفال فيما بينهم فرقة موسيقية، تصدح بأغاني لأم كلثوم محرفةً على ألحان شعبية، وأخذوا

يرقصون طوال الليل دون أن يمنعهم أحد. لم أعبأ بكل هذا، وكان كل فرحي بالمراتب الجديدة التي سننام عليها لأول مرة بدلًا من مصاطب الإسمنت العارية، التي نخرت عظامنا وأوجعتها بالآلام المبرحة.

استيقظنا في اليوم التالي لاستئناف بقية الأعمال، وقد منحونا ساعتين نوم إضافيتين، فصحونا الساعة الثامنة نتثاءب ونمط أجسادنا في كسلٍ لذيذ، نذوقه لأول وربما لآخر مرة. كانت الأعمال المتبقية، عدا عن استكمال الدهان، عبارة عن كماليات وزينة؛ كغرس الأشجار، وفرش الكراسي والترابيزات، وتخطيط الساحة بمسحوق الجبس، بجانب تثبيت عوارض المرمى استعدادًا للعب كرة القدم.

انتهى الأمر سريعًا ومن ثم راح كل طفل يهتم بشؤونه الخاصة. كان كل طفل يحتفظ بطقم ملابس خاص لا يلمسه أبدًا، لاحتمالية أن يأتي هذا اليوم. وراح كل واحد منهم يخرجه من محبسه في الخزانة، ويشتري كيسًا من العطر الرخيص، فيفرغه عليه ويمرغ به الملابس كلها، ثم يغلفها مجددًا في الكيس ويضعها في الخزانة، حتى تصبح الملابس مضمخة بالعطر بالكامل، فإذا ما جاء الغد تكون فواحة. كانوا يجهزون أنفسهم في أبهة كاملة، وتجدهم صافي النفوس بلا حقد أو ضغينة. فساعة الاستحمام التي كانت دومًا تعج بالشجارات، لم تكن كذلك حينها. فكان الحمام ممتلئًا بالأطفال الذين يستحمون في وقت واحد بقدر ما تتسع المساحة لذلك، ويأخذون وقتهم في النظافة دون استعجال أو تأفف من الصبية المنتظرين دورهم. والمتضرر الوحيد في ذلك كله هو نباطشي الحمام المسؤول عن تنظيفه، والذي يعلن بكل سرور بأن الحمام سيكون مفتوحًا على مدار اليوم متى شاء الأطفال استخدامه، على أن لا يخبروا الضابط بذلك حتى لا يتأذى، وبالطبع لم يكن أحد يفعل.

في تلك الأيام، كان يستحيل أن تجد طفلا عابسًا لا تحركه مشاعر الفرح التي تحيط به من كل جانب، وكان يستحيل بالمطلق أن تجد شجارًا واحدًا، لدرجة أن السارقين والنشالين انتهزوا الفرصة وأخذوا ينشطون حينها وهم مطمئنون للعواقب. وللأمانة فإن السارقين أنفسهم كانوا يتحلون بقدر من العاطفة والنزاهة، تجعلهم

يختارون سرقة الأشياء التي يعلمون أن سرقتها لن تزعج صاحبها كثيرًا. وتبعًا لهذا فقد اختفت علبتين من إل.إم من حنا، واختفت قداحة سيد عصفورة المنحوتة على شكل جمجمة، وفقد أمين الشرطة حزامه الأسود ووجدنا طفلًا يرتديه في اليوم التالي.

بيد أن الطفل الوحيد الذي بدا غير مكترث لما يحدث حوله كان حنا. كان دومًا ما يختفي وسط العمل دون أن يعرف أحد أين يذهب، وحينما نتواجد في العنبر فإنه لم يكن يشارك الأطفال خططهم في استقبال أهاليهم أو تحضير مفاجأة لهم، بل يختار أن يجلس صامتًا ومنزويًا على سريره، وبدلًا من أن يقرأ في كتابه المقدس ساعة أو ساعتين، صار يمضي جل الوقت ممسكًا إياه، ولكن الغريب أنه لم يكن يقرأ فيه، كان يمسكه هكذا فقط، ساهمًا محدقًا فيه دون فعل شيء، ودون أن يقلب في صفحاته.

في أمسية اليوم السابق للزيارة، جاءني حنا باكيًا يوقظني من نومي، سحبني بصمت ناحية سريره، وجلسنا سويًا على الأرض مختبئين خلف بسطة الإسمنت مسندين ظهرينا عليها. تكلم حنا بصوت مبحوح هامسًا:

- "آدم، لا أريد لغدٍ أن يأتي".

لم أفهم شيئًا من قوله، فالتزمت الصمت حتى استرسل في كلامه موضحًا:

- "أنت الوحيد الذي ينبغي له أن يفهمني. لن أتحمل رؤية الأطفال مع آبائهم بينما لن يأتيني أحد".

- "لمَ يا حنا؟ هل لم يبلغوهم بالزيارة؟".

نظر إليّ حنا نظرة ثابتة محملة بخيبة الأمل من غبائي، وصمت فترة طويلة رافضًا أن يرد عليّ إلى أن قام فجأة بعدها مستندًا على يده، وسحب بالأخرى الكتاب المقدس من تحت المخدة ثم عاد ووضعه بجانبي. وعلى ضوء الولاعة فض الكتاب وأراني ما بين دفتيه صورة لعروسين يوم زفافهما، يزين رأسيهما الإكليل، كل منهما ممسك يد الآخر، وهما يبتسمان لبعضهما في حبور ودفء.

"أباك وأمك؟" سألته فهز رأسه لي أي نعم.

بدأ ذهني يغيم بالشك على خاطر أنهما قد توفيا ولهذا فإن حنا حزين. وسرعان ما أكد حنا ذلك الخاطر حينما انخرط في البكاء صامتًا خشية أن يوقظ باقي الأطفال، حتى لم يكن قادرًا على نطق كلمة دون أن يتبعها بكثير من البكاء. ولما لم يستطع كبح عاطفته طويلًا فقد صدرت عنه أنة تبعتها تنهيدة عالية، استيقظ سيد سقارة على صوتها وهو يسب الدين لكلينا في مظهر صافٍ من الوحدة الوطنية، وعلى إثره لملم حنا حاجاته وصعد لسريره مستكملًا عذاباته في صمت.

استيقظ الجميع في باكر الصباح، وبدأ كل واحد منهم في استعدادته الأخيرة؛ من ارتداء الملابس وتضييقها أو تقصيرها بواسطة الدبابيس، ثم تصفيف الشعر وتلميع الأحذية، مع رشة أخيرة من عطرهم الرخيص. تشبث بي حنا أثناء خروج الأطفال، طالبًا مني أن أشيع فيهم خبر مرضه الزائف، حتى تكون له ذريعة للبقاء في العنبر، وأن أهله سيأتون لزيارته بالداخل، ففعلت مثلما طلب. كنت أتفهم حنا، وأحس بما يشعر به من حسرة وألم. ورغم أنني كنت أشاركه تلك المشاعر المتمثلة في رؤية الجميع من حوله سعيدًا بسبب شيء لا يملكه قدرًا وقهرًا، وإدراك ما قد حُرم منه حين يحتضن الأهالي أطفالهم ويعتصرونهم حنانًا وشوقًا ويغدقون عليهم بمشاعر الحب الجياشة والملتهبة، رغم ذلك إلا أنني قررت، على عكسه، أن أشارك الأطفال يومهم. وللحقيقة فقد فعلت ذلك لأنني فكرت في إنها ستكون الفرصة الوحيدة السانحة لي هناك لأن أختبر بهجة رؤية فتاة مجددًا بعد صيام طويل.

خرجت مع الأطفال إلى الساحة وأكثر ما يشغل بالي هو أنني لم أمتلك لباسًا لائقًا لارتدائه، فاكتفيت بغسل الطقم الرث الذي ورثته عن الهانم وارتدائه، بعد أن رقعت فتحات التهوية الكثيرة التي به. كانت الشمس غائبة، والسماء ملبدة بالغيوم، وتنفلج من بين سحبها الكثيفة قطعة صغيرة رائقة وصافية بلا غيوم تقبع فوق مصلحة الأحداث مباشرة، وكأن السماء تستعد لابتلاعنا.

انتظر الصبية قليلًا إلى أن بدأ توافد الزوار عبر البوابات، وحينها اتخذت ركنًا قصيًا أراقب الأطفال وزوارهم. وبجانب أهالي الصبية، كان هناك وفدًا إعلاميًا

استقبله رئيس المصلحة بنفسه، واختفوا معه داخل دهاليز المصلحة. كنت أجوب بعيني فاحصًا كل الأحداث التي تدور من حولي، ولاسيما الفتيات القليلات اللاتي حضرن، والتي كانت في رؤيتهن بهجة بالغة، وكأنني طفل يختبر ألذ الطعام لأول مرة. وقد لفت انتباهي بشكل خاص فتاة تتبختر في فستان مفتوح، وتعلو بصوتها في الحديث وكأنها تريد لفت الانتباه. كان جسدها مكتنزًا للغاية، ووجها منتفخًا كالبالون، مليء بمساحيق التجميل. وإذ أركز عليها أثار انتباهي أنا وبقية الصبية أمر في غاية الغرابة، وهو قدوم زائرين لسيد سقارة، وقد كان أحدهما هي أمه بلا شك، وكان الآخر رجلًا ذا يد مقطوعة ووجه مشوه بالندبات، وما أن رآهما سيد حتى جثا على الأرض باكيًا يلثم أقدامهم. فضح تشابه الملامح بين الرجل وسيد كونه أباه بلا شك، وقد تبين فيما بعد صدق التوقع وأن سيد سقارة قد ادعى كذبًا قتله لأبيه ليكتسب الهيبة بين الأطفال، وهو ما فقده بعد ذلك بتسلم عثمان عصفورة سلطة البطش بالأطفال عوضًا عنه.

كانت المصلحة تعج بالابتسامات المغروسة على الوجوه، والأحاديث العائلية الدافئة، بينما يلتهم الصبية في نهم صنوف الطعام المختلفة التي حُرموا منها، وخاصة أن لا طعام يضاهي طعام المنزل المصنوع من الحب قبل المقادير. وفي ذات الوقت، خرج أفراد الوفد الإعلامي منتهزين الفرصة لتصويرهم، وتدبيج المقالات حول مدى إنسانية وروعة معاملة مصلحة الأحداث للأطفال. كدت أصرف انتباهي عنهم لولا أن انسل من بينهم جسد أنثوي رشيق يزيح بيده الواقفين حتى يصل للمقدمة، ويقوم بالركوع على ركبته اليمني ليلتقط صورة للأطفال. هاج وماج الوفد على ذلك التصرف الطائش والطفولي من قِبل الفتاة، لكنها ما التفتت إليهم وواصلت عملها في برود وصفاء ذهن.. وكان ذلك بداية عهدي برهف الغزال.

كانت رهف الغزال في مقتبل الشباب وتنضح بذلك الحماس الغر المستفز للآخرين، والذي لا يصمد بوجهه شيء. وقد كانت طويلة في غير إسراف أو أن اكتناز جسدها يخفي ذلك؛ إذ كان جسدها في شكل كمثري ذو منحنيات ومفاتن كثيرة، يبرزها بشكل فاضح بزتها الإعلامية الرسمية الضيقة التي ترتديها. في حين كان وجهها يشبه في كثير وجوه الممثلات وعارضات الأزياء، فملامحها كلها منمقة، من أنف

صغير وأرنبة مرفوعة، وشفاه وردية منتفخة طبيعيًا، ولا يكاد يفسد كل هذا سوى شامة تلطخ ذقنها.

وبينما كنت أستكمل فحصي لمعالمها استدارت رهف نحوي فجأة، فحولت بصري عنها سريعًا إلى الناحية الأخرى. وبعد برهة كنت قد عدت للالتفات إليها، لكني تفاجأت لما وجدتها تثبت بصرها عليّ وتحدق نحوي وهي ساهمةً تضع يد فوق فمها والأخرى ممسكة بكاميرتها. أثارت نظراتها الجامدة اضطرابي، فصرت أتفحص هيئتي مرتبكًا لعل هناك خطأ بها. وهناك وجدت أن الرقعة المتواجدة في حِجر بنطالي قد انفكت وتفسخ خيطها مبرزةً لباسي الداخلي، الذي كان لحسن الحظ سليمًا. علا الإحراج وجهي فرفعت بصري نحوها وأنا أخبئ بيدي الرقعة التي ما بين قدمي، فوجدتها تنحني وتركع على الأرض، مستعدة لالتقاط صورة لي، وما أن انتهت منها حتى جاءت نحوي، وصارت الآن بجانبي.

حاولت أن أتمتم معتذرًا وموضحًا لحالتي الرثة لكني وجدتني أضم يدي صامتًا ومحرجًا إلى ما بين حجري أكثر من ذي قبل حتى بادرت هي بالحديث سائلة: "لماذا تجلس وحيدًا هنا؟".

لم أرد، وبدلًا من ذلك أفسحت لها مجالًا للجلوس، لكنها ظلت واقفة وعادت تتحدث: "يمكنك أن تنضم لهم وتستمتع بوقتك. ألا تريد؟ يبدو أنه لم يأتك أحد، أليس كذلك؟ ألم يعلموا بأن هناك زيارة؟ إذًا لا بد أنهم غير موجودين، قل لي إن كنت مصيبة. لا، لا. لا داعي للعبوس، أرجوك! خذ".

وشدت رهف كفي لتدفس به وردة حمراء وقطعة من الشيكولاتة، ودون أن تهدر الوقت ركعت على ركبتها مجددًا ملتقطة لي صورة، وجاءت لتريني إياها وابتسامة خجلة تفلت من وجهي العابس.

- "لا تقلق، لن أنشرها إن لم ترد ذلك".

في تلك اللحظة ارتجفت من فكرة أن تنتشر الصور بالفعل وأصبح مشهورًا بين يوم وليلة، وبأي شهرة؟ شهرة البؤس والأسي. عبرت لها أنني لا أريد ذلك، ودون أن

تنزعج من رغبتي أخذت رهف فسحتها للجلوس بجانبي.

"ما اسمك إذًا؟ لمَ أنت خائف من الحديث؟ هل يهددونك بشيء ما هنا؟ قل لي فقط وسوف أفضحهم، أعدك بذلك. عليك ألا تخف، ثق بي! بالمناسبة أنا رهف الغزال، والآن ما اسمك؟".

انزعجت من نبرتها المتعالية وكأنها تهدهد طفلًا، لكن كان في رهف أمرًا آخاذًا يجبرك على أن تتمنى ألا تتوقف عن الحديث؛ كان يصدر الصوت من بين شفتيها على هيئة دفقات ناعسة، ترن في الأرجاء كحفيف أشجار في ليلة ذات نسيم هادئ، يجعل المستمع إليها تستكين نفسه لها وتطمئن.

- "آدم".

- "آدم ماذا؟ ما بقية اسمك؟".

- "آدم فقط".

- "وهو كذلك. هل تعجبك قطعة الشيكولاتة؟".

- "لا بأس بها".

- "هل تسمح لي بأخذ صورة لك وأنت تأكلها؟".

ودون أن تمنحني فرصة للرفض، انحنت رهف بجسدها للخلف ممسكة آلتها لتقبض عليّ متلبسًا وأنا أغرز أسناني في قطعة الشيكولاتة. انزعجت من فعلتها هذه المرة، فطلبت منها غاضبًا إما أن تترك آلتها جانبًا أو أن تتركني أنا، فوجدتها تذعن لرغبتي مرغمة، ونفذت كلا الأمرين معًا. فبعد أن نحت كاميرتها جانبًا، وضعت رجلًا على رجل بكل أنفة وهي تزفر غضبًا، ثم وعلى حين غرة، قامت من مجلسها مضطربة وعادت إلى موضعها مع زملائها حيث كانت. أنبت نفسي على ما بي من غباء، على أنني جاهدت لإخفاء استيائي من مغادرتها، وأنا أتظاهر بمراقبة الأطفال دونًا عنها حتى عدت لإلقاء نظرة عليها، فوجدتها ترمقني بذات النظرة الثابتة والآسرة، فما كان مني إلا أن ابتسمت لها مشيرًا إلي الفسحة بجانبي، لترد على

الابتسامة وتجيء ناحيتي مجددًا في تؤدة آخذةً مكانها وهي تتصنع الحزن وعدم المبالاة. رددت عليها بلكزة جريئة في كتفها، تظاهرت على إثرها بالمفاجأة وابتسمت لي بنصف ابتسامة، وكأنها تستنطقني بنظرات عينيها أن أعتذر، ففعلت.

"لا بأس، قبلته. إذًا، قل لي..". وسكتت رهف هنيهة وهي تحدق في عيني مركزة عليها بعض الوقت، وقالت بعدها: "عيناك مميزتان، أشبه بعيني آلان ديلون. ألا تعرفه؟ إنه ممثل كلاسيكي شهير. وأذناك هاتين –وأخذت تضحك– لكنهما جميلتان، يضفيان على وجهك مسحة إغريقية، ينقصك إكليل فقط".

صببت اللعنات على نفسي سرًا من جراء نشوة أن يكيل أحدهم لأذناي المدح لأول مرة وكذلك وجهي، دون تنمر واستهزاء، فكان ذلك باب رهف إلى قلبي وبابي إلى حبها. رددت عليها بمدح مماثل لجمالها، وحين حدث ذلك، كان ظفر رهف، فانطلقت بعدها على الفور تتحدث دون توقف وقد تغيرت نبرتها.

- "اسمع، إن كانت تزعجك الصور يمكنني مسحها. لم أجئ نحوك لأصورك، أنا لا أستغل معاناة الآخرين، حتى وإن كان وجهك يبدو حزينًا جدًا ومناسبًا للصور. تقول لا بأس بذلك؟ حسنًا، أنا أقول ذلك أيضًا، سأحتفظ بها لأتذكرك".

على الرغم من أن كلام رهف كان نابعًا من القلب رقيقًا ويبدو صادقًا، إلا أنني كنت متيقنًا من أنها تسعى لأمر ما تخطط له، بيد أنني لم أمنع نفسي من الوقوع في شراكها، بل كانت هذه غايتي؛ أن أتوحد معها ولو قليلًا، وأفضي لها بما يفيض به صدري لبعض الوقت الذي أعلم أنه سينتهي لا محالة، وستغادرني بعدها.

عادت رهف للحديث وهي تحكي عن معاناتها للوصول إلى هنا، وكم كان الطريق وعرًا على سيارتهم، ثم أخذت بكلامها منعطفًا آخر لتشاركني قصص حياتها: "هل تعلم أنني عانيت كثيرًا في دراستي لأكون في هذا المكان؟ لقد سقطت سنين عدة، وفي النهاية يريد هؤلاء الأجلاف أن يسبقونني -وأشارت إلى زملاؤها- إنهم يعدونني أقل منهم لأنني تخلفت عنهم في سنتين أو ثلاث، ولكني سأثبت لهم العكس قريبًا. أوه، إنني أتحدث كثيرًا. لا ذنب لك لأحملك همًا فوق همومك، يبدو أنها كثيرة هنا".

"لا، من فضلك افعلي". وجدتني أقول ذلك رغمًا عني فضحكت مني رهف وقالت: "حسنًا، ولكني أكره الحديث عن نفسي، يمكنك أن تتولى الحديث عن نفسك لبعض الوقت".

- "لا شيء لأقوله".

"لا زلت خائفًا". غمزتني رهف الغزال نصف غمزة وهي تقول ذلك، فنفيت كلامها بهزة من رأسي.

- "إذًا فلتتحدث، لماذا أنت هنا؟".

- "إنك تسرفين في وضع آمالك عليّ، وأخاف أن أخيبها".

- "هذا لأجل أنني أريد منك الحديث فقط؟ اسمع، إن كنت تلوذ بالصمت هكذا دائمًا فلا بأس، لكني أشعر أن صمتك وراءه سبب. لقد تطرقت إلى أذني شائعات عن تعسف المكان هنا، ألهذا السبب أنت خائف؟".

تحدثت رهف وهي تميل نحوي هامسة، ثم ابتعدت عني وهي تغمزني محاولة استفزازي للحديث.

- "ومن أخبركِ بذلك؟".

"مصادر خاصة". قالت وهي تضحك.

"لست خائفًا، الأمر وما فيه.." وقبل أن أكمل حديثي تذكرت بطش إدارة المصلحة، فمسكت عن الاستكمال.

- "ها، وفيه ماذا؟".

- "لا شيء".

زفرت رهف مللًا على إثر إجابتي، وصمتت لبضع ثوانٍ تفكر، ثم وهي تتلفت حولها، قامت بإخراج هاتف صغير من جيبها، ولفته سريعًا بمنديل ووضعته فيما بيننا على وضع التسجيل.

- "يمكنك، إن أردت، أن تحكي أي شيء تريد قوله. سيكون هذا احتياطيًا فقط". وأشارت للهاتف.

تململت في مجلسي قلقًا: "تقصدين..أن تنشرينه في جريدة؟".

- "ليس بالضبط. هذا تحقيق صحفي، سيكون سريًا، وسأنشره إن وافقت فقط، دون ذكر أي أمر يخصك بالطبع".

- "وإن لم أرد؟".

"يمكنني العودة لتصوير الأطفال وتركك وحيدًا هنا". قالت وهي تهز كتفيها وتنظر لي مقطبة حاجبيها كالأطفال.

- "هذا تهديد؟".

"يمكنك اعتباره كذلك". ردت وهي تضحك في غنج وأردفت: "عليك أن تفكر في زملائك الذين يعانون هنا، ستكون الفرصة الوحيدة ليصل صوتهم، أخشى إن ضاعت".

استغرقت وقتًا للتفكير حتى بانت لي في لحظة صفاء أن الصفقة عادلة، ستحصل رهف على تقريرها، وسأساهم أنا ولو بشكل بسيط في أن يصل صوت الأطفال بالمصلحة، حتى وإن كنت أعرف أنه لن يغير من الأمر شيئًا. وفي حقيقة الأمر فقد كان دافعي هو انتهاز الفرصة لقضاء أكبر وقت ممكن مع رهف متحدثًا إليها، وذلك بعد أن اشترطت عليها أنها إذا نشرت شيئًا فسيكون ذلك بعد خروجي من المصلحة.

- "ومتى سيحدث هذا؟".

- "بعد شهر".

وضعت رهف يدها على خدها مفكرة، وقد استشفيت ما يدور بخلدها بأن تلك ستكون مدة كافية لأن تفرغ تسجيلها وتحقق في الموضوع، وإلى أن تحرره أكون قد خرجت. قنعت رهف بالفكرة، ثم تظاهرت بالفرح والانفراجة وهي تهنئني على اقتراب موعد إطلاق سراحي. اختبئنا سويًا لنجلس في غرفة قديمة غير مستخدمة

تطل على الساحة مباشرة، ثم سألتني أن أمهلها بعض الوقت حتى تجهز أسئلتها، فأخرجت ورقة صغيرة من كشكول معها وراحت تخط فيه أسئلتها إلى أن أتمت بعضًا منها، وأبلغتني باستعدادها.

- "طيب، لقد انتهيت. مستعد لنبدأ؟ حسنًا، حاول أن تجعل إجابتك مؤثرة بقدر الإمكان، القراء يحبون هذا. أول سؤال هو التالي؛ ماذا لو أنك صحوت ووجدت أنك حر طليق بالفعل، ما أول شيء ستفعله؟"

لم آخذ وقتًا ورددت: "سأذهب رأسًا دون تفكير إلى أحد المقاهي، حيث يمكنني شرب سيجارتي وطلب كوب شاي نظيف بدلًا من الخراء الذي نتجرع إياه هنا".

- "ثم بعد ذلك؟ إلى أي مكان ستذهب؟".

- "لا أعرف، لا مكان لأذهب إليه بعد".

- "ولكنك تخطط لعمل شيء ما، كأن تبحث عن عمل مثلًا؟".

صعقتني رهف بسؤالها الغادر وأصابتني بالدوخة، فأنا وإن كنت أفكر في الخروج من هنا كل يوم إلا أنني لم أفكر ماذا سأفعل بعد أن أخرج، وكأن حياتي بالخارج مضمونة السعادة، ولا ينتظرها سوى إطلاق سراحي لأستمتع بها.

- "لا أخطط لشيء بعينه، كل ما فكرت به هو لحظة خروجي من هنا، استنشاق هواء الحرية، والسير حرًا دون وجهة ولا هدف".

خفت أن أضيف لها أن أكثر ما أشتاق إليه بالخارج هو رؤية الفتيات كل يوم، تلك المتعة التي ما نعلم قيمتها لأننا اعتدنا عليها. أبدت رهف تأثرًا صادقًا بكلامي، ثم إلى حين ترتيب سؤالها التالي رحنا نتابع بعض الصبية من زجاج الغرفة وهم يقسمون أنفسهم لفريقين للعب الكرة. استأذنتني رهف للنهوض ذاهبةً نحو الصبية لتلتقط لهم الصور ومقاطع الفيديو، ثم عادت منتشية بإحدى الصور التي تبرز الصبية وهم يتقاتلون على الكرة، والمرح يعلو وجوههم، مبينة لي بأنها ستكون الصورة المناسبة لمقالها.

"ألا تريد اللعب معهم لبعض الوقت؟" هززت رأسي أن لا، فاستكملت رهف حوارها.

- "فيمَ جئت إلى هنا؟ لمَ لا ترد؟ هل تخجل من ذكر فيمَ جئت؟ لا بأس لننتقل إلى سؤال غيره".

وقبل أن تقرأ سؤالها التالي عمت حركة مضطربة وسط جماعة الصحفيين، وبدأوا في توضيب أشيائهم وهم يستعدون للتحرك لمكان ما.

"هل سترحلون الآن؟" سألتْ رهف حائرًا مضطربًا.

- "لا يبدو كذلك، ولكن علينا أن نسرع للاحتياط".

"نعم، علينا كذلك. لنسرع في الأسئلة، ولكن.. لا ترحلي حتى آخر ثانية". سألتها مستنجدًا فطمأنتني بأنها لن ترحل الآن، وواصلت تحقيقها.

- "إذًا، أخبرني عما اختبرته هنا. هل أنهم بالفعل يعذبونكم؟ لعلمك، غير مسموح لك بالصمت في هذا السؤال".

- "رهف..ولكن هذه ليست لعبة. أنتِ لا تعرفين شيئًا عما يمكن أن يحدث لمن يتحدث في أمور مثل هذه، دعينا ننتقل لسؤال آخر".

- "كما اتفقنا، سأحميك. لن يعرف أحد بأمرك".

لم أعرف من أين جاءت رهف بتلك الثقة بما يحدث داخل المصلحة. هل أخبرها أحدًا ما بالفعل، أم أن ذلك كان أحد أساليب الفخاخ الصحفية التي تطبقها عليّ لأدلي لها بما تريد؟ المهم أنها رفضت الإفصاح، مؤكدةً أنها تحافظ على أمان مصادرها الخاصة كما ستفعل معي إن تعرضَت للضغط للإفصاح عني. منحني ذلك بعض الأمان، إلا أنها أتبعت حجتها بحجة أخرى لم تدع لي مجالًا باقيًا للخوف وذلك حينما أفصحت دون تحفظ:

- "في كل الأحوال إنك لا تملك شيئًا لتخسره".

على الرغم من أن قولها قد حز في نفسي، ولكنه كان مقنعًا بشكلٍ كافٍ لأن أبدأ في سرد كل ما شهدته في المصلحة.

- "حسنًا، سأحكي لكِ كل شيء".

ورحت أحكي لرهف كل ما شهدته بالمصلحة من أحداث وخطوب مريرة، بدايةً من التعذيب الذي تلقيناه منذ دخولنا وتعسف الإدارة ناحيتنا، مرورًا بالظروف غير الآدمية التي نعيش بها، وكون الحياة هنا مجالًا خصبًا لكل الفاقات والأمراض والسلوكيات الشاذة. واستوقفتني رهف عند الكلمة الأخيرة لأوضح لها بعض الأحداث التي يستمتع فيها الصبية بالإهانة وممارسة سلوك جنسي شاذ على الآخرين كتعريتهم دون حرج، وأن هذا، دون شك، نابع من حرمانهم العاطفي ومما علمتهم إياه السلطة من محاولتهم فرض سيطرتهم على الآخرين بكل السبل، حتى وإن كان السبيل إلى ذلك هي أفعال تقشعر لها الأبدان. وبدا أن رهف تقززت مما سمعت حتى سألت مندهشة:

- "تقول أن المسؤولين يعلمونهم هذا؟".

- "كما قلت، طريقة إدارتهم للأمور هي ما تشجعهم عليها قصدًا".

أكدت عليها، وفور أن فعلت برقت عيناها بحماس حاولت أن تخفيه، وسألت متحرقة للاستزادة: "ماذا تعني بطريقة إدارتهم، كيف يديرونها؟".

- "لقد تسنى لي أن أفهم أمرًا مهمًا في الحياة من ملاحظتي لأمور الإدارة داخل المصلحة. لقد تعرضنا لأنواع صعبة من الظلم والتعذيب، والآن ما سألته لنفسي كان هو أي منا أكثر عددًا وربما قوة؛ الظالمين أم المظلومين؟ لقد كان نحن بالتأكيد، ولكن لم لا نثور مجتمعين لإنهاء تلك المهزلة؟".

انصب كامل تركيز رهف على فمي منتظرة أن يطلق السراح عن الإجابة لتلك المسألة العميقة، وحينها بالغت في الأمر متخذًا وضعية الفيلسوف، صامتًا لبعض الوقت مُزيدًا من حرقتها ومتجاهلًا لنظراتها إلى أن شخصت بصري في الفراغ وتحدثت: "لأن السلطة تفهم جيدًا أن الطريقة الوحيدة لإرضاخ الجماهير المظلومة هي أن يرضخوا بعضهم بعضًا. تسألين وما الدافع لأن يرضخ مظلومًا أخاه المظلوم؟ هذا سهل، يكفي أن تعطيه السلطة فتاتها ليظن زيفًا أنه قد علا على بقية أقرانه، لكن

في الحقيقة لا هو طال ترف الظالمين ولا رضا المظلومين".

- "إذًا يفعل هذا طمعًا فقط؟".

- "وفي الحقيقة لكي لا يصير مظلومًا أيضًا، أو هذا ما يعتقده. إنها نقيصة أن تكون مظلومًا".

- "هذا يبدو منطقيًا. ومن هذا الشخص هنا؟".

- "في عنبرنا، هو هذا".

وأشرت لسيد سقارة الذي نظرت إليه رهف بقرف، بينما هو مستغرق في مصمصة أكلة كوارع يبدو أنه قد شغفها حبًا.

- "من الجيد أن يكون هذا ختام حوارنا، يبدو أن موعد المغادرة اقترب"

فاجأتني رهف بكلماتها وهي تدون آخر كلماتي وتتلفت حولها لجمهور الصحفيين والذين افترقوا وذهبوا بعيدًا.

- "ماذا؟ أهكذا ننهي حوارنا؟"

- "لديك شيء آخر لتقوله؟ إنني أسمع".

- "لدي الكثير لأقوله، إننا لم نكد نتحدث".

- "ولكن آدم، الوقت أزف. يبدو أنهم يجتمعون للرحيل".

- "يمكنكِ البقاء قليلًا. إن لزم الأمر يمكننا الاختباء حتى يبحثوا عنا ولا يرحلون بدونك".

عبرت عن رغبتي مازحًا وفي داخلي إحساس رهيب بالندم والتحسر لمرور الوقت، ولكن قابلت رهف رغبتي بابتسامتها الساخرة، وبدأت هي الأخرى في لملمة أشيائها استعدادًا للرحيل.

- "اسمعي، ما رأيكِ بأن تلتقطين صورة مناسبة لمقالكِ؟ سأريكِ العنبر الخرب

وصاحبي المريض بداخله".

توقفت رهف علي الفور عما تفعل، وبرقت عيناها مجددًا بتلك اللمعة الشغوفة والمتحمسة.

- "هل يمكننا ذلك حقًا؟ إذًا فلنسرع. ماذا ننتظر؟".

وأخذت رهف لندخل العنبر، وحين ولجنا وجدنا حنا راكدًا، محدقًا في كتابه دون تغيير. لم ينتبه لدخولنا، فانتهزت رهف وضعيته السارحة للتصوير. وفي تلك اللحظة، التفت كلانا رعبًا لصوت أحدهم وهو يدخل العنبر، ولكن لحسن الحظ فقد كان ذلك عاصم، الذي أقنعناه أن يقف على باب العنبر وينبهنا إن جاء أحد آخر. توجهت ناحية حنا لأوقظه من شروده، فنظر إلينا والتيه يحوم على وجهه. طلبت منه الوقوف، لكنه قابلني بنظرته مجددًا وهو لا يدري شيئًا مما يحدث حوله. رجعت سريعًا إلى عاصم وعدت به مجددًا للداخل، وهناك أسندنا حنا سويًا، ليقف فيما بيننا مترنحًا، فسألت رهف أن تلتقط الصورة سريعًا قبل أن يفلت منا ويسقط. والتقطت رهف الصورة لثلاثتنا؛ حنا في الوسط حيث يستند بيده على كتف عاصم عن يساره وكتفي عن يمينه، ويحدق في العدسة بعين حادة ولكنها منطفئة. بينما كان عاصم يقف مائلًا مبتسمًا باستحياء، وهو يسند حنا بيد وعاقدًا الأخرى في وسطه متفاخرًا بلباسه المهندم والنظيف.

أما أنا، فقد ظهرت بوجه جامد دون تعابير، محدقًا بتركيز سافر في وجه من يرى الصورة، بالرغم من أنني لم أكن أنظر للعدسة من الأساس، بل كنت أركز بكل حواسي على وجه رهف وهي تغمض عينها مستعدة لالتقاط آخر صورة من ألبومها. ضرب ضوء الآلة الوامض في عيني، منبئًا رهف بنهاية مهمتها، وحينها نظرت لصورتها متعجبة من جمالها:

- "أوه، إنها أجمل بكثير من الصورة الأخرى. على الأرجح سأختارها لمقالي بدلًا عنها. آدم، آسفة، ولكن عليّ الرحيل الآن".

قالت ثم هرولت متعجلة ملتقطة أدواتها، وانطلقت للخارج. رغبت لو اندفعت لأسد

عليها طريقها وأمنعها من الخروج قبل أن أبوح لها أنني لا أريدها أن تذهب، وأنني قد تعلقت بها في تلك السويعات تعلق الطفل بأمه. ربما كان هذا فقط لأنها فتاة، أو لأن رهف بحد ذاتها أشعرتني بما اشتقت إليه من شعور بالتوحد والانصهار مع أحدهم، لكن على كل حال لم أفعل، فقد تعلمت مما اختبرته سابقًا، من لعنة البوح بما أشعر، فاكتفيت بتمتمة خافتة بيني وبين نفسي بكلمة الحب الملعونة.

استدارت لي رهف أخيرًا عند الباب وقالت آخر كلماتها:

- "شكرًا لك، يا آدم. سأراك قريبًا، يا صديقي. لا تقلق".

وكانت محقة، لم أقلق لأنني لم أتوقع في الأساس رؤيتها مجددًا. لقد ماتت الرغبة والاهتمام لحظة أن نطقت بالكلمة سرًا بداخلي، لقد انتهى كل شيء سريعًا ومباغتًا، ولقد أحسست بالارتياح لنهايته.

(5)

لقد انكشف لي، وبشكل صارخ، العوار الذي أحمله بداخلي، وقد كان ذلك في وقت فراقي عن رهف، فما معنى أن أقع في حب أحد لا أعرفه البتة، ولم أتحدث إليه سوى ساعة واحدة، أقول ساعة واحدة فقط كانت كفيلة بأن أشعر بما لا يشعر به المرء إلا تجاه محبوبه من وجد وتوحد معه، ما معنى هذا الحب السريع، الذي ما ينفك أن ينطفئ سريعًا أيضًا؟ أي شيطان يقبع بداخلي؟ أي شيطان شرِه بحاجة لمثل ذاك الحب الذي يموت جنينًا قبل أن يُولد؟ وهل تستطيع الشياطين أن تحب من الأساس؟

لقد أذاني كثيرًا أن أشاهد مشاعري الملتهبة تخبو فور أن انغمس في حب إحداهن، أذاني أن أتفرج على حبي ولا تؤذن بدايته إلا بنهايته المحتومة.

لا، لا.. أنا لم أصنع ذلك، إنه الشيطان الذي يسكن بداخلي. لقد ولدت به، لقد تهيأت منذ يوم وجودي الأول لأكون ذلك الوحش. آه، أي عذاب أكابده بسببه!

عليّ أن أقضي على ذلك الوحش، عليّ أن أنهي وجوده، ولكن أي سبيل للقضاء عليه؟ هكذا كنت أفكر في عنبري، وأنا مضطجعًا حزينًا على بسطتي، حتى أجهشت بالبكاء.

وعلى هذا كان قراري بأن أقضي عليه وأن أنهي وجوده مرة وإلى الأبد، وقد فكرت بأن لا سبيل إلى هذا إلا بمنعه مما يقتات عليه وحرمانه منه حتى يذوي ويموت. لأتحلى فقط بالشجاعة والإرادة الكافية، هذا كل ما يتطلبه الأمر.

***

انتهت عقوبتي أخيرًا وخرجت من المصلحة، وللصدفة فإن ذلك كان يوم ميلادي والذي لم أعلم موعده إلا بسبب دخولي المصلحة، فاعتبرت ذلك إيذانًا بنهاية حياة قديمة عليها ألا تلطخ مستقبلي بعد اليوم.

وكما تعرفون فإنه لا مكان لي لأذهب إليه، لذا فقد عرضت مشكلتي على عاصم

وحنا قبل الخروج، وكان رد عاصم عليّ بأنه يمكنني أن أعرج على أهله في حي الظاهر وأخبرهم أنني من طرفه، فيمكنهم حينها أن يعينوني بمكان أبيت فيه وطعام يقيم أودي، بينما كان عرض حنا مفاجئًا وأكثر إغراءً، فقد عرض عليّ أن أقيم بشقته التي أورثها إياه أبواه بعد وفاتهما، ولكنه أوصاني بأمر غريب، وهو ألا أقيم في أي ركن من الشقة إلا الصالة، وحتى قضاء الحاجة والاستحمام سيكون عليّ تدبر أمرهما بعيدًا عن الشقة.

ودون استيضاح السبب لذلك الشرط الغريب وافقت على عرضه، وبدأت رحلتي لهناك. وفي طريق رحلتي إلى العنوان الذي أعطاه لي حنا خطرت لي فكرة سارعت إلى تنفيذها دون تفكير. وكانت تلك الفكرة هي الرجوع لوسط البلد، وبالتحديد لشارع شامبليون، حيث المقهى الذي ترتاده الهانم هي وثلتها من المزيفين، مفكرًا في مواجهتها أمام الجميع. سأفضحها على الملأ أمام أنظار أتباعها والجالسين، وسأبين لهم أنني بريء من كذبها، وإن كنت يومًا طفلًا فاسقًا منحرفًا إلا أنني لم أكن متحرشًا في أية لحظة من حياتي.

طلبت كوبي من الشاي مستمتعًا به منتظرًا على المقهى وأنا أرسم كل التخيلات عما يمكن أن يحدث، وكيف ستدافع عن نفسها وكرامتها، ولكن فور أن رأيت الهانم تهبط من منزلها حتى تحرك بي شيئًا، وأخذتني الرجفة فقمت موليًا الأدبار، صارفًا النظر عن فكرة الانتقام.

وإذًا اتجهت إلى شقة حنا، وفور أن وصلت فعلت مثلما أشار عليّ، فكان تحت بيته صاحب دكان عطارة يحتفظ معه بمفتاح الشقة إلى أن يحين موعد إطلاق سراحه، وهو عم سعيد، الذي سترتبط قصتي به فيما بعد. تحدثت معه بما أوصاني به حنا ليعرف أنني من طرفه، فأعطاني المفتاح وصعدت للشقة. كانت الشقة تقع في جزء عتيق بمنطقة العتبة، وكانت على قدمها وفقر مرافقها إلا أنها شقة نظيفة ومرتبة تريح الأعصاب، ولا يعيبها إلا قربها من ميدان العتبة وسوقه المزدحم والصاخب، والذي جاهدت قدر الإمكان ألا أستمع لصخب شهواتي وألا أخطو صوب شرفة الشقة لأشاهد رواده من النساء الفاتنات القادمات من كل حدب وصوب من تخوم القاهرة.

فعلت ذلك تنفيذًا لوصية حنا وتنفيذًا لوعدي بالتغيير.

في شهور إقامتي الأولى كنت أصوم كثيرًا عن الطعام والشراب ولا أكتفي بيومي الاثنين والخميس فقط، فكان في ذلك توفيرًا لما أملكه من مال قليل ادخرته من بيعي للسجائر التي كان يعطيها لي حنا بالمصلحة، ولكن مبتغاي الحقيقي الذي قصدته من الصوم كان محاولة قربي إلى الله، ومنع شيطاني من شهوة الطعام مثلما حرمانه من شهوة النسوة. وبالفعل فقد بدأت شهوتي تقل، ولكن ذلك لم يكن كافيًا، فعرضت مشكلتي على عم سعيد بطريقة ملتوية لكنه فهم أن هذا مصابي، فأخذ يواسيني بأنني أشهد فترة من حياتي من الطبيعي أن أشعر فيها بالجموح، وأن النساء قد تغيرن عما مضى وصرن أكثر إثارة للشهوة، وما عليّ للتغلب عليها إلا الالتزام بالعبادة وملء وقت فراغي حتى تنقضي تلك الفترة ولا أشعر بعدها بشيء.

أخذت بوصيته وقد أعطاني بعدها بعض كتب الدين والروايات التي انكببت عليها، وأمعنت زيادةً في الصوم حتى صار جلدي ملتصقًا بعظمي، ولكن مرة أخرى لم يكن ذلك كافيًا، فكان يكفي أن أخرج من البيت وأشاهد أي فتاة لتضطرم بداخلي رغبة شعواء لا تنطفئ إلا بهروبي ورجوعي للبيت. ومجددًا طلبت نصيحة عم سعيد ملحًا عليه أن يوصيني بحل آخر، فأوصاني بزيت الخروع وبعض الأعشاب المُرة التي أشرب منقوعها على غيار الريق والتي من شأنها تقليل الرغبات الجنسية لدى المراهقين.

أتى ذلك بثماره حتى ولو لم يكن كافيًا، لكنني بدأت باعتياد الأمر شيئًا فشيئًا، فصرت لا أنزل الشارع إلا قليلًا وبطرق مختصرة ومحددة بدقة، حيث يكون بها أقل قدر من الإغواءات، أذهب منها إلى مقصدي وأعود سريعًا. والأمر الأهم أنه ما صارت ترهقني أي فتاة، بل صار لي ذوق محدد، كان في مصادفة صاحبته عذابًا لا يُطاق. وإلى الآن لم أفهم ما هي علامات ذلك الذوق وعلى أي أساس قرر شيطاني اختياره وإغوائي به. ولكن على كلٍ، فإن الأمر كان ينقضي سريعًا بمجرد امتلاكي الإرادة الكافية لهروبي منه.

بعد مكوثي في شقته بفترة ليست بقليلة، تم إطلاق سراح حنا ورجوعه للبيت،

وفور أن رجع أخرجني من بيته ليومين لأبيت فيهما في ورشة عم سعيد، متعللًا بأنه يحتاج لإمضاء وقته وحيدًا، ولكن كان يمكن بكل سهولة تخمين أنه احتاجني خارج البيت لفترة للتعامل مع أيًا كان هذا الشيء الذي يخفي سره المقدس في بقية البيت. وبعد أن تدبر أمر الشقة رجعت مجددًا للإقامة مع حنا وقد صار بإمكاني التجول في المكان بعد رفع حظر التجول عني، ولم تجئ البلوة إلا من ذلك.

فحينما حل الصيف ذلك العام كان مصحوبًا بانقطاع في الكهرباء يتكرر كل ساعتين على الأقل، ولم يكن أمام الناس إلا الجلوس في الشرفات هربًا من لظى الصيف بل وغالبًا المبيت بها، حتى أن حنا قد اقترح أن ننصب بها سريرًا هزازًا نتناوب سويًا على النوم به.

لو أنني تحملت قيظ الصيف لما تعرضت لهذه الفتنة الخطرة على، وأن أتعلق مجددًا بمشاهدة الفتيات المزدحمات في السوق وفي شرفات المنازل. واتقاءً لمثل تلك الصدف، فإنني قررت ألا أرفع بصري شبرًا واحدًا عن الأرض، حتى إذا حل الظلام لا يكون لي حاجة إلى هواء الشرفة وأستطيع وقتها تحمل الحر بداخل الشقة. ونجحت خطتي كما ظهر، حتى أتى يوم من أيام أغسطس الحارة فدخلت إلى هناك، ولم يكن حنا بالبيت لذا اضطجعت على السرير الهزاز آخذًا راحتي. كان يوم جمعة، والشوارع خالية على غير المعتاد، ولا صوت لصخب السوق المستفز. اتخذت قبعة ووضعتها على عيني مستغرقًا في أحلام اليقظة، بل هو حلم بالذات.

بدأ الحلم باضطراب شديد في ضربات قلبي، اضطراب من ذلك النوع المشؤوم الذي ينذر بقدوم كارثة. وقد كنت في الحلم نائمًا بذات الوضعية كما هي بالحقيقة، باختلاف وحيد مهم، وهو أن الوضعية كانت معكوسة، فكأنما انقلب العالم رأسًا على عقب، وعُلق سريري بسقف الشرفة، وجسدي ملتصقًا به ناظرًا للأسفل برعب. رأيت حينها روحي وهي تفلت من بين براثن جسدي، روح سوداء في لون السخام، ثم تهيم في الفضاء بحرية دون قيد. حاولت القيام بردة فعل، ولكن كل شيء بي تعطل، ولم يتبقَ سوى عينيّ الشاخصيتين تحدقان في الروح وهي تحوم في السماء دون وجهة، متخبطة بين بيوت المنطقة كلها.

فما هي إلا برهة حتى وجدتها تدخل إلى كل شقة في المنطقة عبر الشرفة، وتفتش بها تفتيشًا سريعًا، وتخرج خائبة الأمل لتتردد على شقة أخرى غيرها، ففهمت ما ترمي إليه، لقد خرج الشيطان بنفسه ليجد ضحيته، ولم تعد لي يد عليه. دقيقة وأصبحت الروح في شقة عم سعيد، وكم خشيت أن تُعجب بإحدى بناته، سواء كانت عزيزة أو سلمى، فكلتاهما قد ابتلاهما الله بما فيه الكفاية من الابتلاء، ولكنها خرجت خائبة مرة أخرى ولم تلق عزيزة المقعدة أو سلمى الضريرة إعجابها ولله الحمد، وهكذا ظلت تتردد إلى أن دخلت بيت من البيوت ولم تخرج منه.

تأملت وقتًا كثيرًا البيت الذي دخلته، كان بالتحديد يقع على يسار شقتنا بمسافة غير بعيدة، بشقة فسيحة في الطابق الثاني. ولا أعلم كم لبثت الروح ولكني رأيتها تخرج مهتاجة من الشقة، راجعةً من جديد إلى شرفتنا، متغلغلة بكل سهولة في جسدي دون أي مقاومة مني. عاد الوضع لما كان عليه، فاستيقظت رافعًا قبعتي عن عيني، وقد انتابني الدوار وتسرب مني العرق البارد. قمت مستندًا علي درابزين الشرفة، وأخذت أنظر إلى الشقة التي استقرت بها الروح من حيث رجعت. لم يكن أحد هناك، ولا أثر قريب يمكن التقاطه.

في هذه المرة، لم يكن الشيطان هو من يدفعني عنوةً للنظر والتحري، بل كان ذلك أنا بكل إرادتي. اضطرم الفضول بداخلي حول سبب استغراق تلك الروح الخبيثة وقتًا بالداخل، وفي هذه الشقة بالذات. انتظرت واقفًا متوثبًا لأي شبح يتحرك، وبعد ربع ساعة أطل الشبح وهو يرفل في جلبابه الأبيض المفتوح من نحره إلى مقتبل صدره في بعض الإهمال المثير للشهوة، كاشفًا عن جسد أنثوي بض، يتحرك في غنج صوب سور الشرفة ليلملم الملابس المنشورة. كان ذلك الشبح هي وردة، وربما لو نحيت شيطاني جانبًا لاخترت وردة لو لم يخترها هو. لقد أحسن الشيطان الاختيار هذه المرة!

هل تصدقون أنني من لهفتي للقائها حينها كدت أن أخطو فوق حاجز الشرفة، مصدقًا بقدرتي على السير في الهواء للوصول إليها؟ نعم، لقد أحببت كثيرًا، ولم أجنِ إلا خيبة الأمل، ولكني أشعر بشيء مختلف هذه المرة.

قلت لنفسي، ولكن صوت دنيء بداخلي، لا أعلم مبعثه، سألني السؤال التالي: "أولم تشعر بمثل ذلك في كل مرة رجعت فيها خائب الرجاء؟ لتفكر في هذا؛ إنه ليس إلا فخًا كما سابقيه، ولا يغير جمال الكعكة المسمومة من كونها مميتة". حاولت دفن الصوت عميقًا لكي يخرس إلى الأبد، لكنه وبعد صمت مخادع عاد لي مجددًا في هدأة الليل يحدثني: "لتتريث قليلًا، لا تندفع.فيأكلك الندم فيما بعد".

كان الصوت على خفوته حازمًا ومقنعًا، أجبرني على الاستيقاظ في سكون الليل محمومًا ومتخبطًا في أفكاري، لا أدري الفرق بين واقعي وحلمي. كان ذلك يخنقني ويفوق طاقتي، حتى أن كل المحاولات لإسكات عقلي بالمهدئات والعودة إلى النوم كانت بلا جدوى. فسهرت الليل كله، وفور أن بزغ الفجر وبدأت الحركة تُسمع في الشارع، نزلت منتظرًا عم سعيد أمام دكانه.

جاءني العم سعيد متفاجئًا بانتظاري في هذه الساعة، ففتح لنا الباب، ثم صب لنا الشاي بعد أن حلف عليّ لأفطر معه. شكرته على الواجب، ثم جلست أحك أنفي حرجًا، لا أدري من أين أبدأ الحديث.

- "أنت متأكد أن الأعشاب هذه ليست مضروبة؟ إنها لم تأتِ بالنتيجة المطلوبة".

حلف على المصحف أنها أصلية وأن كل من جاءه بداء مشابه وأخذ أعشابه لم يعد إلا وقد شُفي بفضل الله.

- "إذًا مشكلتي مستعصية".

- "ما زلت تهيم بهن؟".

- "أسوأ من ذلك! عما قريب ستصير أحلامي كما واقعي، كابوس أريد الهرب منه. ما الحل برأيك؟".

- "اسمع، لقد جربنا العبادة وشغل وقتك فيما يفيد والأعشاب، وتقول أنه لا شيء أتى بنتيجة؟".

هززت رأسي موافقًا.

- "لمَ لا تقع في حب إحداهن هذه المرة، ولكن في الحلال؟ ستشبع رغباتك وتكون حلالك ما دام لك العمر".

- "أتزوج؟".

- "ولمَ لا؟ رغبتك الجامحة ستسعد أي فتاة.. المهم ألا تفرط".

وضحك حتى سعل فانتظرت حتى انتهى وقلت له: "ولكن أنت تعلم الظروف.. لا حيلة لي الآن".

- "وإن أوجدت لك الحل؟ سأعطيك الفتاة ومكان الزواج بالإضافة لعمل يعيلكما".

عرفت عرض عم سعيد وسألت نفسي سرًا أترى ستكون عزيزة أم سلمى، ولكني سألته مداريًا معرفتي: "كيف يصير هذا؟".

- "إن وافقت على الزواج من عزيزة ابنتي".

- "عزيزة!".

- "إن فكرت في الأمر مرتين فلن تكون لك، أنا لا أبيع ابنتي! لكني والله ألتمس فيك شخصًا تقيًا يجاهد الفتن. إن الزمن ليس زمنك، ولا أحد هنا ليعينك، ولكنك برغم كل ذلك تجاهد. لو لم أجدك مناسبًا لابنتي، وأنك سترعاها، وستجد فيها المأوى ومثواك للهداية، ما كنت لأعرض عليك أمرًا كهذا... إنني أمنحك أغلى ما عندي، وفي المقابل ستمنحني عهدك وأمانتك".

دار عقلي كالطاحونة في تلك اللحظة، محاولًا تقليب كل الأفكار بدماغي سريعًا. فلا أعلم عاقبة أمري إن رفضت ذلك العرض. صحيح أن عم سعيد قد ربى ابنتيه تربية حسنة برغم ما ابتليا به من أمراض وعلل منعت زواجهما لحد هذه اللحظة، ولكن في الأخير يبدو أن مصابي حله فتاة تكون من اختياري، بها قدر من الجمال يشبع غريزتي ورهافة من الروح تربطني من خلالها للأبد وتملأ فراغي، فلا أعود بحاجة لأخرى. أما عزيزة فإنها مقعدة، لم تجرب حيل الحب، وبها من الذبول المفاجئ لفتاة قد تخطت الثلاثين بعامين فقط.

- "سيكون عهدي بيني وبينك كعهد موسى وشعيب، على أنني لن ألزمك بسنين عشر، بل ستعيش معها للأبد".

قال عم سعيد وهو يضحك ثم عاد صوته يرن في أذني مستكملًا: "إنك أشبه بموسى. ألم تعلم أنه كان به قوة قادرة على إزالة غطاء بئر لوحده، وهو لا يزيحه إلا خمس وعشرون نفرًا؟ لقد كانت به طاقة لا تهدأ، ولولا أن تزوج لتهدأ رغائبه لما كان مستعدًا للنبوة وقيادة شعبه.. لتقتدي به".

بعين جاحظة كنت أنظر للعم سعيد، ووعيي مخدر لا يستوعب قدر الحدث، فكرت في أنه حتى لو لم تكن عزيزة هي ما أتطلبة ذوقيًا، إلا إن هذا سيكون المطلوب، لهزيمة الشيطان هزيمة نكراء. وبرغم ما أضحكني من تشبيهي بموسى إلا أنني اقتنعت بكلامه. لعل هذا الزواج يكون مهدئًا رغباتي السحري.

سارت إجراءات الارتباط سريعًا، فكان إعلان خطوبتنا وكأنه إعلان زواجنا، فمن شدة فرح القوم بتزويج ابنتهم منحونا حرية لا حد لها، ومع ذلك فإن نفسي عافت استخدامها فيما لا يليق هذه المرة، منتظرًا يوم إعلاننا كزوج وزوجة. ولأكون صادقًا فإن هذا التعفف لم يكن خاليًا من بعض الغمزات واللمسات التي سمحت لي برؤية عزيزة سعيدة بحياتها الجديدة ومتهيأةً لها. واسمحوا لي أن أصف عزيزة، فكما أسلفت فإنها ما أن وُلدت حتى أُصيبت بالشلل، مع مضاعفات مناعية أخرى أصابتها بالكثير من الأمراض، حتى أن فترة بلوغ أقرانها كانت فترة شيخوختها هي، فذبل جسدها وانكمش علي كرسيها المتحرك، وذبلت معها ملامح وجهها فصارت غير متميزة عن بعضها.

ولا شك أن كل ما مرت به كان سببًا في عزوف العرسان عن التقدم لها رغم محاولات أبيها المستميتة والمغرية لهم، ومع ذلك لو أهمل واحد فقط هيئتها الخارجية ونظر لما وراء ذلك لرآها حقًا ملاك مجسد، فقد يبدو أن المرض المبكر قد أبرأ روحها من كل مدنسات البشر. كانت طيبة الروح إلى الحدود القصوى، صاحبة نفس سمحة وروح وديعة، تجعل لكل خاطر حساب، ولو قد مد القدر لها بأن تصبح سليمة معافاة، وأكون أنا مكانها لكانت حملتني في كل خطوة على ذراعيها دون

الحاجة لكرسي. كما أنها جعلت من حبها لي شغلها الشاغل، تتفنن في إظهاره إرضاءً لخاطري، وإدخالًا للسرور إلى قلبي.

لا يمكنني القول بعد كل هذا أنني وقعت في حب عزيزة، ولكنني بعد الزواج منها وجدتني بدأت في الانغماس معها في حياة جديدة بما تطلبته من مسؤوليات لم أتخيلها، وأحداث وعرة تطلبت مني العزم والتضحية، وجدتني أفعل ذلك دون تذمر وبكل سهولة، فخمنت أن كل ما فات من عمري لم يكن إلا هدرًا وزيفًا أسميته بالحب، أما الحب الذي اكتشفته حينها فلا يتطلب إلا معيشة الحياة؛ معيشتها هكذا بهدوء وتركها تمر كل يوم بسلام.

كان عم سعيد محقًا حين قال أن الزواج السليم يستنزف المرء من كل رغبة تاركًا إياه عفيفًا غير راغب في الحرام وغير ملوث. إلا أن تلبية هذه الرغبات كادت تفسد حينما أُصيب كلينا بمرض الزهري، ولجهلنا فقد تركناه يستفحل حتى صار كابوسًا لنا، ولكننا في النهاية تغلبنا عليه بعد أن ترك لنا خوفًا جعلنا نتخذ تدابيرًا مشددة لئلا يتكرر، فكانت النتيجة أن كُبحت الرغبات بدلًا من أن تُشبع. كانت هذه النتيجة القاسية، فأما النتيجة الأكثر لطفًا، والمفترض أن تكون مدعاة للسعادة، هي أننا مع اتخاذنا لتلك التدابير تأكدنا أننا لن ننجب على الأقل في القريب العاجل.

قد يكون الأمر مفاجئًا أنني من تأثرت بتلك التداعيات أكثر من عزيزة، فقد رغبتُ بشدة في أن نُرزق بطفل سريعًا، والسبب هو رغبتي في المزيد من المسئوليات التي تكبلني بعزيزة، والتى من شأنها إن حدت عن الطريق القويم أن تذكرني بما ورائي من مسؤوليات فلا أغدو طائشًا.

وقد كنت محقًا فيما أفكر إذ أن تحاشيّ لطريق وردة لن يفلح طويلًا، فمكوثي معها في ذات المنطقة كان بمثابة القنبلة الموقوتة، ولم أملك من المال بعد ما يمكنني من الانتقال إلى منطقة أخرى، ولذا فقد فُرض عليّ العيش مع ذلك القلق الدائم بأن ألقاها صدفة في أي موعد وأي طريق. ولم أملك من أمري شيئًا لتفادي مثل تلك الحوادث إلا الإكثار من الاحترازات المضحكة، التي أخترع لها أسبابًا واهية تصمد أمام الجميع لكنها تخر هاوية أمام عم سعيد فيتندر منها ومن خوفي. وآخر

هذه الاحترازات هي أن تلفحت بالجبة والقفطان وزدت عليهما بالعمامة الصعيدي وصرت أسدلها على نصف وجهي وأمشي مطرق الرأس، حتى لقبوني بالشيخ دون أن أستحق، وخُدعوا في حيائي واحترامي، فمنحوني درسًا يومين في الأسبوع بعد صلاة العصر في إحدي الزوايا، فصرت أترنم فيها للقوم بالوعظ والهداية وقد كنت أكثر احتياجًا منهم بها.

بعدما انتهيت من أحد الدروس، عرجت على محل عم سعيد مثلما تعودت، فتلقاني بحديثه ساخرًا: "يبدو أن زواجك من ابنتي قد فتح لك باب الرزق كما فُتح على موسى بمصر".

- "كف عن تشبيهي بموسى، فقد جاء لهداية الناس، وأنا لا أكافح إلا لهداية نفسي".

- "والله وهذا يكفي! ولكن أين أنت من حديثك في الناس اليوم عن البر بالزوجة وحسن المعاشرة؟".

- "وماذا اقترفت بحق عزيزة حتى تسأل سؤالًا كهذا؟".

- "ولكنك لا تريد الإنجاب! هل تريد أن تهرب قبل أن تتم عهدنا؟".

وقفت متعجبًا نافرًا عروقي بوجه عم سعيد وهو يستمر بالحديث: "لقد وثقت بك أن تترك عيشة المطاريد وتستقر مع ابنتي، وهيأت لك حياة لم تحلم بها".

- "هي من أخبرتك بهذا؟".

- "لا يهم! إن كان بك مشكلة فقل، عندي من الأعشاب ما يفيدك".

- "هذا يكفي!".

قلت وتوجهت فائرًا نحو الخارج لا ألوي على شيء، مغتاظًا من عزيزة وأبيها. وفي طريق خروجي كان هناك من الغضب الكافي ما جعلني أتوجه يسارًا لأول مرة بدلًا من أن أسلك يميني نحو المنزل.

- "إلى أين أنت ذاهب؟".

كان صوت عم سعيد متعقبًا أذيالي. لم ألقَ له بالًا وتوجهت مسرعًا إلى بيت وردة، وكأنما يلحقني أحدهم. توقفت أمام بيت وردة محدقًا بالشرفة منتظرًا إطلالتها دون جدوى، حتى جلست على مقهى أمام بيتها متلهفًا لخروجها.

وجدت على المقهى غير واحد من الجلوس تعرفوا على وهم يقابلونني بالترحاب مستغربين وجود شيخ مثلي عليه. سببت أحدهم سبابًا جارحًا سائلًا إياهم أن يتركوني لحالي، فسكت وتبعه الآخرون في الصمت مديرين نظراتهم بين بعضهم البعض. فاتني الوقت دون دراية مني حتى أدركت أنني لبثت في المقهى ساعتين دون نتيجة، فاعتزمت على المغادرة متشبثًا بأمل خافت أن تأتي الدقائق القليلة القادمة بجديد.

كان يجلس على طاولة بجواري رجل عجوز منحرف لم يقمع السن رغباته بعد مع شاب آخر يتلاسنان حول فتاة، ثم سكتا فجأة ودار حديثًا هامسًا، حتى أشار العجوز بصوت عالٍ، التفت له الجميع، أن ما ينتظرونه قد أطل وظهر، فإذا بأنظارهم جميعًا مشدوهة نحو الشرفة التي ظننت لسذاجتي أن ما من أحد يعبأ بها بين الجلوس غيري. نظرت إلى حيث يرسلون بصرهم لأجد وردة وهي تتبختر بشرفتها الواسعة في لباسها العشوائي المبعثر وجسدها مفرق بين مناطق عارية ومناطق أخرى مغطاة عن طريق الصدفة لا أكثر. ثوانٍ أخذتها وردة، لتنتهي من حاجتها وتعود للداخل من جديد، كانت كافية لأن تلهب من رغبتهم ورغبتي معهم، وقد جئت راجيًا إطفائها.

ضحك العجوز بجانبي ملء أسنانه الفضية وغمزني بكلمات وجهها لصاحبه: "أما قلت لك؟ إنها قادرة على أن تهز بغنجها وحسنها أركان أطهر من بالأرض. حتى انظر، إن الشيخ لا يستطيع رفع عينه عنها".

- "لا تظلمه، ربما يقوم بفحصها حتى يحذر الناس منها.. هئ هئ. ما رأيك بوردة يا عم الشيخ؟".

فوجدتني أرد على سؤاله وأتلو قوله تعالى: "﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً

كَالدِّهَانِ}، هكذا ستتلون السماء بمثل حمرة خديها يوم القيامة".

نظر لي الرجلان بعيون منكرة، وضرب الشاب كفًا بكف وضحك هازئًا: "لقد ذهبت وردة بعقل الشيخ".

علمت في الجلسة نفسها أن وردة حديثة عهد بالمنطقة، أتت إليها من مكان لا يعرفه أحد، وقامت بشراء تلك الشقة الفسيحة هي وأمها، لأن والدها غير موجود ولا أحد يعرف كذلك أين هو، أمات أم طلق وافترق عنهما، فنشأ من كل ذلك لغط حولها وحول طبيعة عملها، حتى عاب الجميع في شرفها. ولم تشبع تلك المعلومات شيطان فضولي، فانضم إلى شيطان الحب وجعلني معه أتعقب أحوال وردة وأخبارها كل حين، ولكن بين ذلك الحين والآخر كان كل همي هو أن أتكبل بعزيزة، آملًا أن يكبح ذلك من جماحي ومطاردتي لوردة. ولذلك فإن أول ما فعلته عقب تلك الأحداث هو أن ركضت إلى البيت منكمشًا بين ذراعي عزيزة متدثرًا بأحضانها، وقمنا، كما لم نفعل من قبل، بممارسة علاقة جامحة، كانت إعلان بدء سلسلة من ولادات متعاقبة، أسفرت عن سلسلة محكمة العقد من أربعة أولاد، ظننتها ستجرني من عنقي إلى حِجر عزيزة وحدها دون غيرها. هكذا قادتني الأمور إلى الاعتقاد بأن علاقة زواجي بعزيزة سوف تستمر إلى أن يفرق الموت بيننا. فقد رُزقنا بأربعة أطفال، وشاء القدر أن يكون رحيمًا بضعفي فغادرت وردة المنطقة لتتزوج، ولكنها لسوء الحظ تطلقت وعادت مرة أخرى، ثم ولحسنه ما لبثت أن غادرتها لتتزوج مجددًا، فخلا قلبي لذلك كله من كل قلق واضطراب، واستقرت علاقتي بعزيزة لحد عظيم.

فصحيح أنني ما بين الفترة والأخرى كانت لا تخلو حياتي من نزوة طائشة مع هذه أو تلك، لكن لشد ما كان الأمر مختلفًا. فتلكم المرات لم أشعر بأي رابط بيني وبينهن، ولم ينشد قلبي فيهن دفئًا أو حبًا، بل كان الأمر لا يعدو كونه إلا عادة مستفحلة لا أستطيع فكاكًا منها، أفعله دون إرادة مني ولا هدف من ورائه سوى أن أدفن احتمالية أن تنجرف رغباتي إلى ما هو أبعد، فأخون عزيزة جسدًا وروحًا.

ولشد ما أبهجتني مسؤوليات ومنغصات حياتنا الجديدة بعد مجيء الأولاد، فها هي ذي عزيزة تنتحب شاكية من موجة ارتفاع الأسعار التي اجتاحت البلاد،

وتندب حظها حول مصاريف الأولاد ودراستهم التي على الأبواب، وطفلنا الجديد الذي نستعد لاستقباله، فنعقد مجلسًا أسريًا نتشاور فيه حول تقليل النفقات، وأعدها بتحسن الأحوال وتدبر الأمر قريبًا دون أن أعرف لذلك طريقًا، فينتهي الاجتماع على ابتسامة دافئة وقبلات سخية واثقة من قدرتي وتسأل فرج الله عاجلًا. ويستجيب الله لدعوتها سريعًا، فيجيئها المخاض في الأسبوع التالي، وتنجب لنا آخر الأبناء. ويجيء مولد الطفل بحظ سعيد، إذ في ذلك اليوم سقط عم سعيد ميتًا بعد أن صرعته شاحنة وهو في طريقه إلى المشفى إلينا، فأصرت عزيزة على تسمية الطفل باسمه رغم أننا قد أسمينا طفلنا الأول باسمه بالفعل، ولا أقف أمام رغبتها إذ أنه جدير بالاسم عن أخيه، فمولده جاء بإرث أورثه عم سعيد لعزيزة بنصيب من المال لا بأس به أوكلتني إدارته، وكذلك كان قد كتب لي بوصيته إدارة دكان عطارته، فمن الله علينا بتوسعته وإدارة الأموال في عدة مشاريع أصابها نجاح غير متوقع، فعظم المال لدينا وألم بنا رخاء مفاجئ لم نحسب له حسبانًا.

وعلى إثره، اقترحت على عزيزة أن نغادر المنطقة بأسرع ما يمكن، ونشتري لنا شقة فاخرة في مكان آخر، لكنها أصرت علي المكوث بالمنطقة، وألا تتزحزح من جانب أبيها الميت. صحيح أن رفضها لم يكن له الأثر الكبير، إذ أن زواج وردة أودى بها لتستقر بالإسكندرية، ولكن كان بقلبي شيء من غصة تحول بيني وبين الاطمئنان الكامل.

مضى على زواجي بعزيزة خمسة عشر عامًا، صار فيهم سعيد الأكبر يملك من العمر ثلاثة عشر عامًا، وسعيد الأصغر عمره ستة أعوام، وما بينهما هدى وصفية تشبان الخطوات الأولى نحو البلوغ. والشيء المشترك بينهم جميعًا هي وراثتهم كل ملامحهم من عزيزة، ولم يأخذوا عني إلا أذناي فكانت سببًا للتنمر المبكر عليهم. دونًا عن ذلك فلا يمكنني القول إلا أننا عشنا كأسرة سعيدة، مفعمة بالحب ومترعة بآمال وأحلام المستقبل.

كنا قد أنهينا عشاءنا في المساء، وفي الساعة العاشرة خلدنا إلى النوم أنا وعزيزة بعد أن نام الأولاد، وقد غطت عزيزة فورًا في النوم، بينما بقيت مستيقظًا والنوم

يجافي عيني. حدقت في ضوء الأباچورة سارحًا، ولم تكن عزيزة تستطيع النوم إلا وضوءها مشتعلًا. وفي غمرة تفكيري لاحظت شيئًا إذ كنت أرى انعكاس وجهي في مرآة الغرفة. لقد استغرقت وقتًا طويلًا لألاحظ هذا. أوتصدقون؟ خمسة عشرة سنة لألاحظ ما يلي؛ إنني الآن عجوز، شاخت ملامحي حتى صارت سحنتي كالجدود في السبعين أو الثمانين رغم أنني لم أتخط الأربعين إلا بقليل. إنني الآن وإذ أتقلب مديرًا وجهي لزوجتي الحبيبة والعزيزة النائمة بجانبي وأتأمل فيها وفي علاقتنا، أرانا وقد كبرنا سويًا حتى السبعين، وصرنا نملك أحفادًا وذكريات مهولة حولنا نتذاكرها سويًا في جلسة أنس، ولكن ما إن أختلي إلى نفسي-أقول وأنا أتخيل نفسي قد وصلت لهذا السن- حتى أنساها كليًا، أنسى ذكرياتنا، وجهها واسمها، ولا يعد أمام ناظري إلا وجه وردة، فيعتصر الندم قلبي، وأتخيل أي مسار كانت لتتخذه حياتي من الرضا والسعادة إن لم أتخلَ بكل جبن وخسة عن آخر نبضة حب نبض بها قلبي بكل صدق لوردة.. كانت تلك آخر مرة شعر فيها قلبي بالحياة.

أعطيت عزيزة ظهري واستمررت في التفكير وقد أحسست في تلك اللحظة أن السعادة التي عشناها كأسرة قد تخللها الملل والتبرم مؤخرًا، فأصابني السخط على كل ما أملك من نِعم حينها، وودت لو ضحيت بها جميعًا في سبيل أن ينبض قلبي بالحب مجددًا. تقلبت مجددًا ممعنًا النظر في وجه زوجتي. كان الضوء يتراقص بسبب صرير ريح ينفذ من الشرفة راسمًا ظلالًا مرتعشة على وجهها. إنها لم تتبدل كثيرًا منذ تزوجنا، بل صارت، على العكس مني، أصغر سنًا وتبدو أكثر نضارة وإشراقًا.

أزحت الغطاء لأعلى مغطيًا كتفيها، فاستفاقت تنظر لي بعين محبة ناعسة سرعان ما انقلبت لعين قلقة جاحظة تنظر لي بعطف: "آدم، ماذا بك؟".

عبثت بشعرها المنسدل على الوسادة وأخذت نظرة عميقة إلى عينيها اللوزيتين اللتين لم أرَ بهما إلا الندم. لقد كانا يعكسان ما يضطرم بداخلي.

- "لمَ تحدق بي هكذا؟ وما هذا العرق على وجهك؟".

ومدت يدها تزيح العرق المتفصد عن وجهي.

- "إن عرقك بارد، لقد أصابك برد من النافذة. سأجلب لك كمادات دافئة".

- "لا شيء.. أنا بخير".

وما زالت تنظر بعين زائغة سائلة: "هل ألم بك أمر ما؟".

- "لا شيء".

وعادت عزيزة للنوم. وإذ تأكدت من صوت نخيرها وأنها مستغرقة بالنوم، أطفأت ضوء الأباچورة وتملصت من تحت الغطاء، متسحبًا على حين غفلة نحو الخارج.

في طريقي إلي الخروج من البيت لم أشأ أن ألقي نظرة أخيرة إلى ما تركته ورائي، كنت أعلم أن نظرة واحدة نحو الأطفال كفيلة بأن تردني عما أعتزم عليه. لقد تكبلت بسببهم خمسة عشر عامًا، ألا يكفي ذلك تضحيةً وإهدارًا لعمري؟

كنت أحسب أن في مجيئهم كفايةً لتقييد وكبح رغباتي، ولكني علمت أنه متى ما تحين الرغبة الحقيقية من قوة لا تعد تلتفت لشيء، بل تتملص منه تلمصًا وهي تزيحك دونًا عنك لتنفيذها.

لقد اختبرت ذلك الآن، خمسة عشر عامًا كانت كفيلة لأن يتمخض حبي لوردة وأتأكد من حقيقته وأنه لن يمت ولن يخبو أبدًا كما سابقيه. كانت تلك فرصة لا تُترك، وأين لنا في حياتنا من حب نتيقن من حقيقته لهذا الحد، وأي غبي يقرر أن يتخلى عنه ويتركه؟

لا أعلم أين مكان وردة الآن، لكني سأخرج في الظلام باحثًا عنها. عسى أن تشفق السماء على نيران حبي وترشدني إليها.

(6)

كانت دلجة الليل عصيبة جرّاء السحب التي تدر المطر سخيًا، والريح العاصفة زمهريرًا التي يترسب هواؤها بالعظم مباشرة، إلا أن أكثر بلاياي كانت في جر قدمي نحو ما أصبو؛ نحو وردة. فكل قدم تعصي الأخرى، وكل عضلة تتنازع مع نظيرتها، فواحدة تريد التقدم وأخرى تهفو إلى الرجوع والتدفؤ بأحضان أهل البيت. ولم يفض نزاعهما إلا غلبة القلب على العقل، الذي طفق يجرجره وراءه كالأسير، فإن هم العقل بالحديث وتذكير القلب بما خلفه ورءاه، أخرسه القلب بخرقة يدسها في فمه، ويذكره بكم سنين العمر التي أماته فيها وهدرها سُدى. فيعود العقل يغمغم بأنها لم تكن سُدى، وإنما علم فيها القلب كيف يحب حقيقةً، وكيف يصرع نزواته الطائشة التي لم تطلني إلا بالعذاب والألم. ويكاد عقلي ينتصر، فتتقهقر قدماي للخلف من جديد راجعًا نحو البيت، ناظرًا إلى شرفته ومُهمًا بالصعود، لولا أن تكون ضربة قاصمة يوجهها قلبي لعقلي، مبررًا له بأن تلك النزوات، ولولاها فقط، وبدون تلك العذابات وذلك الألم الممض لما كانت حياة.

"وغد لتعرف أن صاحبنا لم يعش معك تلك السنوات الخمسة عشر من الحب المسؤول، كما تقول، إلا كجثة هامدة لا تذروها طعم ولا رائحة الحياة".

انتصر قلبي، فوثبت قدماي من أمام البيت لتعود حيث الطريق إلى جحيم وردة بكل سعادة.

"هذه الحياة وإلا فلا". هكذا كان لسان حال قلبي.

***

كان ما يرشدني إلى مكان وردة هو خيط واهن من المعلومات، فالمرة الأخيرة التي رأيتها فيها كانت عندما اهتدى أحد الصبية المتيمين بها إلى صورتها وهي تزين أحد أغلفة إعلانات الملابس الشعبية المنتشرة بمنطقة العتبة والموسكي، وقد سارع يزفها لشباب المنطقة ليفرجهم عليها. كانت وردة تقف على قدم وتثني الأخرى واقفة على أطراف أصابعها بدلالٍ وإغراء، وهي تمنطق خصرها وترتدي ثوبًا ضيقًا

تروجه للزوجات، يكاد يتفتق عن مفاتنها البارزة. تركتهم حينها للملصق ودونت أنا رقم هاتف شركة الملابس التي تعمل لديها. كان خيطًا واهنًا كما ترى، فيمكن أن تكون عارضة أزياء مستقلة لا علاقة عمل لها تربطها بشركة بعينها، أو أن تكون الشركة غيرت رقمها، كما أن هناك احتمال قوي راجح، وهو أن يرفض المسؤولون بالشركة إعطائي أية معلومات عنها. لكن كل ما هو مؤكد أن ذلك يستحق التجربة، ولأنه كل ما أملك للوصول إليها.

اتصلت أولًا برقم هاتف الشركة المحمول ولم يرد أحد، فجربت أن أضرب جرس هاتفهم الأرضي ليرفع أحدهم السماعة أخيرًا وقد أتى من ورائها صوت أنثوي ناعم ولكنه خارج عن طوره ويرد في عنف وقلة صبر.

- "شركة ف. للملابس النسائية؟" سألتها.

- "نعم. من تكون أنت؟".

وتوقفت برهة حائرًا أن أعطيها اسمي الحقيقي أم لا، وفي غمرة التوتر رددت مسرعًا: "أنا.. آدم بيه البرهوشي". قلت مفخمًا صوتي بنبرة متعالية.

- "ومن يكون البربوشي هذا؟".

- "لا، لا..البرهوشي".

- "نعم. على كل حال من أنت بعد كل هذا؟".

- "صاحب مصنع للملابس. أردت أن أستعلمكم عن أمر، وإذا سمحتِ يا عزيزتي، فليتسع صدركِ لي، فإني أسأل عن فتاة كانت تعمل لديكم عارضة أزياء؛ مدموزيل وردة. هي تعمل معكم، أليس كذلك؟".

- "إن أعمالنا متوقفة حاليًا، عن إذنك".

وهمت بإغلاق الهاتف بوجهي لولا أن لحقتها معربًا لها عن حاجتي الماسة لرقم وردة، وما كان كرمها لي أكثر من أن طلبت مني أن أمليها رقمي بينما ترسله لوردة وتقرر هي بنفسها أن تتصل بي أم لا. وأمليته عليها لكني فكرت أنه سيكون أفضل لو

أعطتني هي رقم وردة لأتصل بها بدلًا من انتظار مكالمتها.

- "آسفة، ولكنها لا تعطي رقمها لأحد".

عزمت على استيضاح أمر آخر لكن الوقت لم يسعفني بسبب إغلاق السكرتيرة للهاتف في وجهي. ذهبت بعد ذلك لأتخذ من سيارتي مأوى، ملتصقًا بجانب الهاتف في انتظار مكالمة وردة. مرت ساعات اعتصرني فيها قلق الترقب حتى صارت أعصابي كالخرقة البالية، واستنفد الانتظار الممض مشاعري مثلما استنفد الوقت أثناء ذلك بطارية هاتفي دون أن أنتبه لذلك إلا بعد حين. انتفضت من مقعدي فزعًا وترجلت من السيارة باحثًا عن جهاز شحن أعيد به بطارية هاتفي للحياة، وقد كادت أنفاسي تتقطع وأنا خائف كل الخوف أن تكون وردة اتصلت بي في أثناء ذلك ولم تجدني متاحًا لتصرف النظر عن الاتصال بي مجددًا. عدت للسيارة بجهاز الشحن وأوصالي المرتعشة تترجى الهاتف بكل ذل أن يفتح في الحال وألا يضيع مزيدًا من الوقت، وعندما انفتح الهاتف أخيرًا عاد قلبي إلى ضخ الدم من جديد.

لم أستطع منع نفسي من الفكرة المشؤومة التي توحي لي بأن وردة اتصلت في أثناء انفصال هاتفي ولن تعاود الاتصال. كان هذا يليق بما فيه الكفاية بفتاة وهب لها القدر حظًا من الجمال الباهر الذي يؤمّن لها خضوع كل الأمور وألا تنجر وراء طلبها. ولكن أنّى لي التأكد من ذلك؟

لا شيء، سوى بالانتظار الممل الذي انتظرته في سيارتي طيلة يومين حتى أنتنت وتشبعت برائحة العرق مختلطًا بالرائحة المنبعثة من المقاعد الجلدية التي كادت تصهرها حرارة الشمس الماثلة فوقها طوال النهار، فصارت رائحتها كما رائحة مكب النفايات. اتصلت مجددًا بمكتب شركة الملابس وجاءني نفس الصوت من وراء سماعة الهاتف: "شركة ف. للم...".

لم أمهلها فرصة الحديث هذه المرة وقاطعتها في نفاد صبر بقولي:

- "آدم البرهوشي، أريد التواصل مع مدام وردة، إن الأمر ملح وضروري وعاجل".

- "آدم بيه! إنها لم تتصل بك إلي الآن؟ لقد أعطيتها رقمك بالفعل ولكن يبدو أنها

مشغولة بسكنها الجديد".

- "أي سكن؟".

- "لا أعرف بالضبط، لكنها تركت سكنها بالإسكندرية وعادت للقاهرة".

كنت سأطلب منها رقم وردة مجددًا ولكني تذكرت رفضها للأمر في المرة السابقة، فلفقت حيلة استعطفها بها حتى تعطيني إياه وبدأت في تنفيذها.

- "لأخبركِ بأمرٍ يا أختاه، إنني لست بحاجة إليها للعمل فقط، إن الأمر أكثر إلحاحًا من هذا، إن المرحومة والدتها كانت سيدة في غاية الدماثة ورقي الأخلاق، ولقد ربطتني بها علاقة عمل من قبل وعلى إثرها فإنني كنت مدين لها ببعض المال. هي تسكن بمنطقة العتبة، أليس كذلك؟ هذا لتعرفي فقط أنني أعرفهم. ولكنني لما ذهبت لرد الدين في آخر مرة علمت بوفاة والدتها، ولهذا كما ترين، إن ضميري لن يستكين ولن أرتاح أبدًا حتى أرد لها مالها، لو كان بإمكاني الذهاب لبيتها لفعلت، لكني خارج البلاد الآن. ماذا لو مت هنا قبل أن أعود وأرد لها مالها؟ على الأقل لتعلم بنيتي برد مالها. هل أتعذب بجهنم لأنني لا أعرف رقم شخص؟ سبب مخزٍ لأن أُلقى في جهنم، كما ترين. سيريحني كثيرًا لو أعطيتني الرقم. أكون شاكرًا حقًا لو فعلتِ ذلك، هل تسمعينني؟".

- "يمكنني الاتصال بها مجددًا وقول لها ما قلته لتتصل بك".

كان ردًا صاعقًا كفيلًا بأن يخرجني عن طوري، لكنني تماسكت وعدت للقول: "أرجوكِ، أعطيني الرقم الآن ولننهي الأمر. إن الأمر بسيط جدًا؛ رقم هاتف، وذلك كل شيء".

ثوانٍ من الصمت أعقبت طلبي لها بإعطائي رقم وردة، إلي أن ردت بعدها وهي تمليني إياه أخيرًا. تلقفت منها الرقم كما يتلقف حيوان فريسته منتشيًا عابثًا بها بعض الوقت قبل أن يدرك ما عليه فعله بها. ولما انقضي توتري بدأت في الاتصال ليبرز قلق أكبر مصاحب لكل لحظة يأخذها الهاتف في الرنين، وأنا أعض أناملي وتصطك نواجذي حتى تهادى إلى سمعي صوت عذب، ارتعش على إثره قلبي وقد

توقف للحظات عند سماعه، وكان ذلك أول مرة أشهد فيها صوتها. أخذت تردد كلمات "ألو" دون رد مني حتى استفقت واستجمعت شتات نفسي لأرد:

- "مرحبًا، مدموزيل وردة؟".

- "نعم، من معي؟".

- "أنا..أنا آدم البرهوشي، كنت طلبت مكالمتكِ من سكرتيرة مكتب شركتكِ القديمة".

- "نعم، وهي من أعطتك رقمي؟".

- "نعم. ولكن لا تلوميها رجاءً، فإني أحتاج إليكِ في أمر ضروري".

- "حسنًا، ولكن أيمكنك أن تسرع في إخباري ماذا تريد لأنني على عجلة من أمري؟".

- "لا شيء". قلت ذلك متضايقًا من نبرتها.

- "عفوًا؟".

- "أقصد.. أنني كذلك على عجلة من أمري، كصاحب مصنع فإن لي أعمال كثيرة. ما رأيك إذا تقابلنا لأحدثكِ عن عرض عمل؟ ذلك سيكون أفضل للحديث عنه بشكل كافٍ، نعم سيكون كذلك".

- "لا مشكلة، ولكن أي أجر تعرضه؟".

- "سيمكننا الاتفاق حينها".

- "أتمنى أن يكون الآن. إن لدي عروضًا كثيرة حاليًا بالفعل".

وعدت محتارًا في الرد، فلا أعلم أي مبلغ يعرضونه على عارض الأزياء، ولكن كان من الفطنة أن أتأكد أن الرقم الذي سأعرضه سيكون مغريًا لها على كل حال حتى وإن كان زيادة عن المعتاد.

- "عشرون ألفًا مقابل جلستين أو ثلاث".

- "لا بأس، سأتصل بك مجددًا لتحديد الموعد".

"لا بأس!" قلت لنفسي. يا ثرى أكان المبلغ قليلًا بالنسبة لها؟ أم أنها تعودت على مثل تلك الأرقام فلم تعد تبهرها؟

انتهت المكالمة على إيمان عميق بأن وردة لن تتصل ثانيةً، وأنني من كان يجب أن أفرض عليها ذلك الموعد فرضًا. إنني أصغر كثيرًا من أن تهتم بي وردة وتعيرني بعضًا من انتباها، إنني أحقر من أن تستهلك خلايا مخها الطاقة في ذلك. نعم، أنا على علم بكل ذلك، وأي عار في الأمر إن كنت قد أحببت، وإن كان ذلك ثمن حبي؟

كنت على إدراك كافٍ بمدى غطرسة الآلهة، وأي تضحيات ينبغي على المرء تقديمها لنيل رضاها ونظرة عطف منها، وكنت على استعداد تام لتقديم ذلك طوعًا لنيل رضا وردتي. لا شك يخامرني في أمرها، فلو أنها وُجدت في الأزمنة الغابرة لكانوا قدسوها ونصبوا لها تمثالًا في مصاف الآلهة.

ومضت الأيام بالفعل دون اتصال وردة، ولم ينازعني كبريائي لمعاودة الاتصال بها، لكن فكرت في أمرٍ من شأنه أن يعطيني النتيجة المرجوة من تقبل وردة لي وإعطائي الاحترام الكافي، وهو التمادي في شخصية آدم البرهوشي لما هو أبعد، لأحوله من صاحب مصنع ملابس إلى رجل أعمال صاحب ثراء فاحش. وبدأ التحول يتخذ مجراه في مكالمة وردة، فقد بادئتها بنبرة ودودة مذكرًا إياها بشخصي، ثم سرعان ما تصنعت في نبرتي شيئًا من الكبرياء وجمود رجل أعمال مستاء من أن يعير أحدهم بعضًا من وقته الثمين.

- "مدموزيل وردة، لقد كان لنا حديث حول عمل منذ يومين، هل تتذكرين؟ واتفقنا أن نتقابل لنبدأه".

- "أوه، لقد نسيت حقًا. سأتواصل مع حضرتك لتحديده".

- "ولكن ما رأيك إن كان هذا الخميس؟ هل لكِ أن تنبئيني بمكان سكنك لأرسل لكِ سائقي الخاص. سيشرفني هذا".

- "عمارة ٨، شارع "أ."، متفرع من ميدان العتبة".

- "حسنًا، يمكننا اللقاء في السابعة بعد يومين. يناسبكِ هذا؟".

- "نعم، نعم. مع السلامة". وانغلق الخط من جانبها.

وإذ اختلقت أمر سائقي الخاص لأعبر عن مدى قوة وثراء شخصيتي الجديدة، فقد شرعت في اختلاق بقية أركان شخصية آدم البرهوشي صاحبة الصيت والأموال الطائلة. وكاد أن يقف المال عائقًا في استكمال تلك المظاهر، إذ لم أتخذ معي من ثروة عائلتي المليونية إلا عشرات الآلاف من الجنيهات وسيارتي الحديثة، التي سارعت في عملية بيعها مكتفيًا بشراء دراجة نارية بدلًا منها لأقضي بها المشاوير البسيطة، واستئجار سيارة مختلفة في كل مناسبة أحتاج إليها للقاء وردة، وهذا على كل حال كان ليدعم من مظهر ثرائي عما لو كنت أركب نفس السيارة في كل المناسبات. ولما تكدس لديّ قدر كافٍ من المال شرعت في استئجار شقة فخمة، يتوه المرء بداخلها من اتساعها، في منطقة راقية من مصر الجديدة، حيث تواجهني كنيسة البازيليك على بعد خطوتين من الشقة.

وجاء اليوم الموعود للقاء وردة، وقد كان يومًا حافلًا. بدأته بالتسوق في النهار، وشراء بذلة سوداء مبهرجة الياقة بفصوص من الياقوت والماس، وجزمة ڤيرنية تسطع بارقة. ولم أكتف بذلك، فاتخذت باروكة من شعر بني داكن، ينسدل شعرها السائب على قفاي ويغطي بعضًا من جبهتي، ملبيًا أمنية رهف الغزال القديمة في أن أكون شبيهًا بآلان ديلون، وبالطبع كادت تتدخل أذناي لإفساد اللوحة، لولا أن دفستها مخفيًا إياها بباقي طول شعر الباروكة. وبعدما فرغت من التسوق، عرجت إلى معرض للسيارات مستأجرًا سيارة ليموزين بيضاء، واستأذنت صاحب المعرض أن يوفر لي سائقًا خاصًا لهذه الليلة ليقل وردة إلى مكان اللقاء. وقد وفر لي سائقًا على وجه السرعة، ولكنه كان سائقًا جلفًا ماكرًا، عرف مدى حاجتي الملحة له فبدأ باستغلالي.

"الرحلة ستكلف ألفي جنيه يا بيه". قال لي مستندًا على سيارة الليموزين بكل أنفة

وكبرياء.

- "إنه مشوار ذهاب وعودة، ولن يتسغرق أكثر من ساعة، على أي أمر تريد ألفين جنيه؟".

- "والله إذًا بإمكانك أن تبحث عن سائق من الشارع، ولكني أحذرك، أي سائق سيبدو جربوعًا في مقعد قيادة الليموزين، إنها تحتاج إلى سائق لا تبتلعه فخامتها، ويمكنك في ذلك الاعتماد على وجاهتي. سأرتدي لك أفضل بذلة "شوفير" رأيتها في حياتك، سأشرفك أمام الجماعة".

قال وهو يمط في كلامه بلهجة وقحة غامزًا لي.

- "وليكن. ألف جنيه، هذا أقصى ما عندي".

- "ولكن أتعلم كم ستكلف بذلة الشوفير؟ إنها من قماش سويسري في منتهى الوجاهة والشياكة، وإلا لبست لك شيئًا أقل، هذا يتوقف على صورتك أمام الجماعة".

كرر مجددًا مستفزًا أعصابي، لأقرر في آخر الأمر أن استخدم شخصية آدم البرهوشي.

"ما اسمك؟" قلت وأنا أنظر إليه من عَلٍ باحتقار.

- "أبو سريع يا بيه".

- "اسمع يا أبو سريع، لا تتحدى آدم البرهوشي أبدًا. إنني قادر على شرائك توًا، ودون أن أدفع بك فلسًا واحدًا. خذ ألفك هذا، ولا تقلق، سأستدعيك مرة أخرى متى احتجتك".

وشددت كف يده عنوة لأدس به المال، موليًا إياه ظهري هامًا بالرحيل، ولكنني التفت إليه مجددًا، مؤكدًا عليه بموعد ومكان اللقاء. واخترت لمكان اللقاء مقهًى فخمًا، ولكن لضيق الوقت لم أنتبه إلى أنه يناسب عاشقين أكثر من مناسبته للقاء عمل. وصلت إلى هناك قبل الموعد بساعة بهدف أن أتعرف على العاملين هناك وعلى

قائمة الطعام وأفضل ما لديهم، حتى أكون على دراية بكل الأمور وأتجنب ما يمكن من إحراج. وكذلك فقد أعطيت أحدهم إكرامية سخية حتى يخدم طاولتنا بكل لباقة وتفخيم، ثم بدأ في تعريفي على أصناف الطعام والشراب التي لم أسمع عنها يومًا، رغم ثرائي حديث العهد.

وفي أثناء ما يعرفني علي بقية الأصناف قطع حديثنا هبوب ريح من الجنة، التفت لها كل من بالمكان. كانت وردة قد وصلت. لكزت العامل في فخذه وتصنعت الجد والرزانة، ليهرول ناحية الباب يستقبلها وصولًا إلى مائدتنا. كانت وردة تتبختر في دلال في بنطال جينز مطاط وسترة مهلهلة رمادية اللون، تكون محتشمة بالقدر الكافي على أي جسد يرتديها، إلا أن وردة كان بإمكانها أن تحول خرقة المطبخ إلى لوحة فنية مثيرة للرغبات بمجرد أن ترتديها. وكما كنت أشاهد في الأفلام القديمة، قمت من مقعدي لأمسك يدها بلطف مزيحًا لها كرسيها للوراء للجلوس، ثم عدت لمقعدي وجلست في وضعية مهيبة تليق برجل صاحب مكانة مرموقة، واضعًا ساقًا فوق الأخرى.

خفق قلبي بشدة جراء تلك التمثيلية والادعاء الهزلي، حتى خفت أن أكون قد أهملت شيئًا حرجًا أو لم أولِ تفصيلة هامة انتباهي الكافي فأظهر لها كالأخرق، ولذلك بدأت الحوار لأكتشف مدى انطلاء الأمر عليها.

تنحنحت قائلًا: "كيف حالك يا مدموزيل وردة؟".

"بخير، كيف حالك مسيو آدم؟" ردت بجزيل الاحترام والأدب.

"هل كانت رحلتكِ إلى هنا جيدة؟". سألتها لترد علي بنبرة حيادية تمامًا "على ما يرام".

- "إذن، لندخل في صلب الموضوع، الوقت ضيق. لكن أولًا ماذا تطلبين؟".

وطرقعت بأصابعي ليثب أمامي العامل في طرفة عين، سائلًا إياي بكل ضراعة: "مسيو آدم؟".

لم أرد عليه وأشرت بنظري إلى وردة ليولي انتباهه لها: "ماذا تطلبين يا سيدتي؟".

ونظرت نظرة سريعة في القائمة لترد "أريد دولسي دي ليتشي".

ودون النادل طلبها ملتفتًا إليّ من جديد: "وأنت مسيو آدم؟" وأضاف ما لم يكن بالسياق: "هل أطلب لك مشروبك المعتاد؟".

رددت بكل تناكة بهزة من رأسي أن نعم دون أن أعرف ماهية هذا "المشروب المعتاد"، ليرحل عني سريعًا، وأتفرغ للنظر إلى وردة. لقد اجتاحني في تلك اللحظة رعب فظيع جاهدت لمداراته وأنا جالس قبالتها. لقد مضى ذلك الأمد البعيد عندما رغبت لو أستطيع التحليق للقياها، وها هي أمامي الآن، لا يكاد يفصل بيني وبينها شيء. وها أنا أنظر إليها عن كثب دون حاجز أو أحلام أبتنيها عنها في خيالي لأعوض غيابها في واقعي. وعليّ القول أن وردة قد تغيرت ملامحها كثيرًا عما مضى، ولست أدري أذلك بسبب تقدمها في السن أم أنني أتوهم لأنني، ولأول مرة، أراها عن هكذا قرب. إنها لم تعد بتلك النضارة السابقة، وذلك اللمعان الذي يعمي الناظر إليها. لقد خفت بريقها، وكان هذا مما زاد من جمالها، فلا يتوفر وقت أكثر مناسبة لإدراك جمال القمر من الليل الحالك. أما قوامها فلم يعد ذلك القوام الممشوق، بل صار أكثر تكورًا وليونة، لتتعتق السنوات عن جسد أكثر إثارة للشهوات واللذات.

فرغت عيناي من جسد وردة لتعودا إلى حيث ينبغي أن يكونا؛ إلى وجهها. لقد اجتاحت بعض الثنيات وجهها، وكللت ابتسامتها على خجل من أن تفسد ذلك المحيا الجميل، كما خطت بعض التغضنات جوانب عينيها، والتي يبدو أنها بذلت جهدًا لإخفاءها بمساحيق التجميل دون أن تفلح. كل شيء تغير إلا ما بعينها من سحر دافئ ونظرات ناعسة لا تحتاج لمجهود لإيقاع أيّ من كان على وجه الأرض في شراكها.

"مسيو آدم". تهادت الكلمات متقطعة من بين شفتي وردة لتوقظني من غفوتي، فعضضت إصبعي صامتًا حرجًا أنظر إليها.

- "لقد نسيت أن تحدثني عن العمل".

- "آه، العمل! ولكن لنتحدث بعض الوقت حتى يصلك المشروب وحينها نبدأ في حديث العمل".

- "أري أن لكل منا مصالحه وعليه العودة إليها، لذا فلندخل في صلب الموضوع".

- "معكِ حق. إن الموضوع وما فيه هو الآتي؛ إنني أملك مصنعًا جديدًا للملابس النسائية، كان عليّ أن أنتقي له وجوهًا تليق بجودة مصنوعاتنا، وأبحث عن وجه مخصوص ليكون الواجهة الرئيسية لمنتجاتنا، ولأصدقكِ القول فإن ارتدائكِ لمنتجاتنا سيضفي عليها الجودة والجمال".

- "إذن لم تختارني؟".

- "عفوًا؟".

- "إن لم تكن تثق بكون ملابسك من الجودة الكافية التي تلفت انتباه العميل بجانب عارض الأزياء فلن تبيع شيئًا إلا وجه عميل يحدق في جمال عارضة الأزياء دون فائدة تعود عليك، هذا ألف باء عرض أزياء".

لم أفهم عما تتحدث وردة، وفي هذه الحالة لم يكن أمامي إلا الابتسام ومحاولة المداراة علي الموضوع. اللعنة! لمَ لم اقرأ شيئًا عن عرض الأزياء؟

حاولت العودة لحديث طبيعي عن موضوع آخر، ولكن كأن وردة أرادت أن تغرس إصبعها متعمدة بموضع ألم مزعوم لتختبر إن كان ألمًا حقيقيًا أم كذبًا يدعي صاحبه.

- "يبدو أن لك خبرة طويلة بمجال الأزياء، فبذلة شيك مثل التي ترتديها لا يمكن أن يختارها إلا شخص له خبرة بالموضة، أليس كذلك؟".

تفاديت فخها ورددت: "ليس بالظبط. إن لي ذوق راقٍ بالفطرة دون دراسة الأزياء".

- "وقد اختارني ذلك الذوق لتمثيل علامته التجارية؟" مطت شفتيها في عجب.

- "لست وحدك من اخترته، لكنكِ ستكونين الواجهة الأساسية لشركتنا. ثم أي امرئ يحتاج لدراسة ليميز أنك جميلة؟".

تجاهلت قولي الأخير وسألت بذات النبرة المحايدة: "قلت لي ما اسمها؟".

- " بي أند دابليو براند".

- "اسم غريب، إلام تشير حروفه؟".

"البرهوشي ووردة". وضحكت ساعلًا لكن ما أشد ما أحسست به من إحراج لما تجاهلت وردة مزحتي وهي ترمقني بنظرة تشي بكل معاني الاحتقار، ولم أسترد بعضًا من ثقتي إلا حينما بدأت تخوض في حديث أكثر دقة عن نوعيات الملابس التي أصنعها، فأخبرتها أن مصنعنا يهتم بملابس النساء وخاصة ملابس المنزل أكثر من غيرها.

- "ومن ضمن ما نصنعه كذلك سراويل وأقمصة داخلية، لا بأس لك بعرض ذلك؟".

- "لقد كان يمكن ذلك فيما مضى، حين كنت شابة. دعني مع ملابس المنزل المحتشمة. وهل تصنعون شيئًا آخر؟".

- "ملابس البحر والمايوهات".

- "هذا جيد، يمكنني ارتداء المحتشم منها كذلك".

أبدت وردة إعجابها وصمتنا بعدها حتى نرتشف مشروبنا، وكان ما أحضره لي النادل هو فنجان قهوة سادة تجرعت مُرها غصبًا. خيم الصمت أثناء ذلك منذرًا بنهاية اللقاء، حتى برقت لي فكرة عاجلة سارعت للإفصاح عنها ومنها لأطيل حديثي معها بعض الوقت.

- "ما رأيك إذا كانت جلستنا التصويرية على شاطئ البحر؟ سيكون أجمل لعرض ملابس البحر، ها؟".

- "همم، تبدو لي فكرة حسنة. أجواء البحر ستكون لائقة لعرض الملابس". نطقت جملتها مرطنة بعض كلماتها بالإنجليزية.

- "إذن، سأرتب سفرية إلى شرم الشيخ أو الغردقة وأبلغك بالأمر".

- "ستكون التكلفة الإضافية عليك!".

- "هذا عادل، لن أنقص من اتفاقنا شيئًا".

وانتهينا على اتفاقنا بالسفر قريبًا، ثم قامت وردة مستأذنة الرحيل. أوصلتها إلى سيارة الليموزين المنتظرة بالخارج، فغمز لي أبو سريع بعينه بوقاحة متمتمًا بأنه يستحق كل شلن لتوصيلها. تغاضيت عن وقاحته وودعت وردة على أمل للقاء قريب.

عدت إلى شقتي الفخمة، وكان أول ما فعلته في اليوم التالي هو تركها، والنزول بفندق بدلًا عنها لتقليل النفقات التي عليّ إدخارها للأيام المقبلة مع وردة. ووقع اختياري لفندق "ب." المواجه للباحة الخلفية لقصر البارون، والذي يقف متحديًا جمالية القصر بكل سفور. وإني لأجلس مع نفسي الآن أعد وأحصي كم كذبة اختلقتها البارحة، وكم كذبة سيتطلب اختراعها في المستقبل لمداراة أن تنكشف الكذبات القديمة، لأكتشف أن ما تحدثت به ليس من قبيل الكذب، وإنما كانت أنصاف حقائق يبقيها الغد على أمل أن تصبح حقائق كاملة. فقد أصحو غدًا وأجدني ثريًا من جديد، لينتقل آدم البرهوشي من عالم الخيال إلى عالم الحقيقة، ويصبح لديّ مصنعًا للملابس، وسيارة ليموزين بسائقها تركن في ساحة قصري المديد الفسيح، الذي تستقر وردة على شرفته المزهرة، وتطل على حديقته المشجرة، وهي تلوح لي مودعة أثناء انصرافي للعمل.

كل أنصاف الحقائق يمكن أن تصبح حقائق كاملة، ولا حقيقة يمكن أن يُنتقص منها شيئًا إلا حبي لوردة. وإن كل تلك الكذبات ستنمحي ونسخر منها سويًا في وقتٍ لاحق، وذلك حين تقبل وردة تضحياتي في سبيلها، وتعلم أنني لم أفعل ذلك إلا لأجلها. ستجل وردة تضحياتي وتدرك كم يمكنها أن تستند عليّ، وأنني على استعداد تام لأقدم لها كل ما أملك لأحيا معها.. نعم، ستفعل ذلك حتمًا.

نفضت تلك الأفكار عني وقمت لاستكمال الخطة؛ خطتي أن أجتمع بوردة. اتفقت أولًا مع شركة للسياحة على حجز رحلة أسبوع إلى شرم الشيخ، والنزول بأفخم فنادقها، مع التأكيد على موعد الرحلة بعد أسبوعين. وهكذا انقضى الجزء الأسهل، ليتبقي جزء انتقاء ملابس العرض. أخذت وقتًا للتفكير إلى أن اهتديت إلى طلب ملابس من علامات تجارية أوروبية ذات جودة معقولة لكنها غير معروفة، وكان أغلب تلك العلامات من بلاد شرق أوروبا.

وصل الشحن في الأسبوع التالي، لتتبقى الخطوة الأخيرة والمهمة، وهي استبدال الشرائط التي تدل على اسم المصنع ومكان الصنع بأخرى تحمل العلامة التجارية للمصنع الذي اخترعته. وكان ذلك أسهل ما بالأمر إذ قام بغزلها وتثبيتها ترزي على مستوى عالٍ من الاحترافية والمهارة انتقيته لهذه المهمة. ولما فرغت من إحكام تلك التفاصيل، جلست لأعد خطتي المالية.

كان كل ما معي بعد عمليات البيع هو مبلغ ثلاثمائة ألف جنيهًا، وقد كان بحسابي البنكي مبلغ آخر أستطيع به تدبر أمري لشهور أخرى على الأقل، ولكن لما عاهدت نفسي أنني لن أمسه لأنه حق أولادي، فقد أخرجته من خطتي المالية. وقد وضعت تلك الخطة على أساس أقصى قدر من السخاء يمكنني تدبره، ووجدت أن المال سيكفيني لمدة ثلاثة أشهر متتالية من التبذير، وأي يوم زيادة فهو من شفقة وإحسان القدر إليّ. ثلاثة أشهر، عليّ خلالهم أن أنتزع حب وردة، وأعترف لها بأنصاف الحقائق لتصفح عنها ونكمل حياتنا سويًا، لنصبح حقيقة واحدة كاملة. إذن، فلأتصل بها لأخبرها بأمر سفريتنا، والتي ستمهد لنا الكثير من حبنا.

أطلعت وردة على الموعد وخطة العمل، وقد وافقت، فيما بدا لي، دون حماسة. ومهما يكن من أمر، فإن الأمر الواقع هو أنه في صباح يوم الثلاثاء سننطلق في رحلتنا. أمضيت الأيام كالطفل الصغير في انتظاره للسفر، الذي يستعين على بطء مرور الوقت بخيالاته الشاطحة لسعادة الرحلة، ثم ما ينفك يقوم ليوضب حقيبة سفره ثم يفرغها مجددًا ويعيد الكرة إلى ما لا نهاية، وحين ييأس من مرور الوقت يستعين بتجربة الملابس عليه قطعة بعد قطعة إلى أن يدركه الملل فيجلس على سريره وهو يجافيه النوم حتى يحين يوم السفر، فيستعجل أبويه ويضطرهم عنوة بإلحاحاته المتكررة للخروج مبكرًا عن الموعد. وكانت هذه فعلتي، إذ اعتمرت باروكتي مع قميص بنصف كم وسروال قصير وحذاء رياضي، وخرجت مبكرًا منتظرًا وردة لساعتين، إلى أن ظهرت أخيرًا في فستان ربيعي بهيج الطلة، ينسدل من بعد ركبتها بقليل، ومزركش بالورود التي لم تستطع، رغم بهائها، أن تطغى على جمال الوردة الأصلية.

انطلقنا في الرحلة، ولما وصلنا متعبين من السفر طلبت وردة الراحة في ذلك اليوم، لنباشر العمل في صباح اليوم التالي. وجاء صباح الأربعاء، وقبل أن نباشر العمل فاجأتني وردة بطلب استقدام لفيف من مصففي الشعر وخبيرات التجميل إلى غرفتها بالفندق، مما كلفني مالًا كثيرًا لم يكن بالحسبان. ولما انتهت من جلستها خرجت كشخص أقل جمالًا ورونقًا عما دخلت، فكان هذا سببًا في حسرة إضافية على المال الذي تكبدته.

"شكرًا مسيو آدم". قالت وردة بكل لطف.

ثم، وكما هو مخطّط له، تواصلت مع أحد الاستديوهات الفوتوغرافية لإجراء جلسة تصوير على الشاطئ. وإلى حين أن يصل فريق التصوير تناولنا أنا ووردة فطورنا في أحد المطاعم الخارجية لأن وقت فطور الفندق كان قد انتهى. ووصل فريق التصوير أخيرًا، لنستقل سيارتنا البيجو، التي كنت قد استأجرتها بالقاهرة قبل السفر، إلى موقع التصوير. وهناك كنت أجر من ورائي حقائب الملابس التي أصرت وردة على اختيارها من المجموعة قطعة قطعة، عازمةً على مفاجأتي بها وقت ارتدائها.

"ثِق في ذوقي، سأجعل من علامتك التجارية تنتشر في السوق كالنار في الهشيم". كان في نبرة وردة شيء من حماسة مفاجئة. ودخلت وردة إلى كابينة تغيير الملابس، متمهلة في ذلك، بينما أنتظر خروجها في لهفة لأرى أي قطعة ملابس اختارتها لبدء الجلسة.

وعلى حين غرة، دفعت وردة ستارة الكابينة، وخرجت من هناك تركض نحو الشاطئ وتصيح بكل مرح، وهي تهفهف في ثوب بحر أورجواني معقود من الجانب بشرائط لازوردية بلون مياه البحر يتطايرها الهواء مع شعرها السائب. وكما أن فريق التصوير فهم المغزى فبدأ فورًا في عمله. ولم أفهم أن وردة كانت محترفة لذلك الحد البعيد، فإنها لم تفعل حركاتها الغريبة تلك إلا لالتقاط صور تبدو حية ونابضة بالحياة دون ادعاء، وقد أجادت في ذلك لأبعد حد، إذ بدت الصور طبيعية دون اصطناع، وأضافت لما تلبسه جمالًا يزيد عن جماله الموضوعي بأضعاف مضاعفة، وإن تحررينا

الحقيقة كاملة، لقلنا إنه لم يوجد بالصورة جميل إلاها.

وتتدلل وردة في مشيتها وسط الرمال البيضاء بين كل حينٍ وآخر إلى الكابينة لتغير ما عليها وتعود بقطعة جديدة ما تنفك تبهت بجمالها عليها كل من يراها، وتلتفت لها الأنظار وهي تركض على الشاطئ كاليمامة. وظلت هكذا منتشية بعملها إلى أن فرغت من تصوير أغلب قطع الملابس في ذات الجلسة، مبتهجة أشد البهجة بما تفعل. ولم ينتهِ ما بصندوق وردة بعد، فقد ادخرت قطعة أخيرة لنهاية الجلسة، ولم أتخيل أبدًا وأنا أنتقي هذه القطعة لشرائها أن تكون بمثل ذلك جمال حين ترتديها. فها هي تخرج من الكابينة متبخترة في فستان منزلي أبيض بأكمام من الشيفون تنتهي بأساور مطرزة من الدانتيل، وقد كان مفتوح النحر ويشد الأرداف شدًا جاعلةً إياها تهتز وتترجرج في دلال. وفي هذه المرة خلعت نعلها لتتموضع للتصوير بذات الوضعية المثيرة التي رأيت بها صورتها على غلاف أحد مصانع الأزياء لأول مرة. تماهي كل ذلك في كامل الإبداع مع جسدها البض ووجها النوراني الذي يلمع تحت أشعة الشمس البيضاء الخافتة، بينما أتابع بعيني رياح البحر والأمواج المذهبة وهي تغازل ساقيها وترفع عنها حواف الفستان المزركش بورد الدانتيل.

انتهت جلسة التصوير بسعادة غامرة على وجه وردة المنهك والمتعب، وعدنا إلى الفندق لنرتاح على اتفاق بأن نلتقي على العشاء في مطعم أحد الفنادق المطل على البحر مباشرةً. وحينها خلوت إلى نفسي أعيد الحسابات. لقد تجاوزت في يوم واحد ما كان مخطط له بشكل كبير، لينتقص ذلك من مدة خطتي المالية. وكانت نتيجة إعادة الحساب هي أن خُصم مصاريف يومين من المدة المخطط لها.

- "لا بأس، يمكنني التضحية بأكثر من ذلك في سبيل سعادتها".

قلت لنفسي ناهضًا أتجهز للعشاء، مرتديًا سروالًا وقميصًا مزركشًا، وكان لباس وردة بمثل تلك البساطة، كانت تنتعل خفًا وترتدي فستانًا عاري الأكمام مفتوح الصدر بعض الشيء، تُطايره رياح البحر المسائية.

"آدم". صاحت فور رؤيتي وقد فاجأتني أن تخلت عن رسميتها.

"وردة! أي جمال تفاجئينني به كل لحظة!". انطلقت مادحًا دون تفكير.

"قميصك جميل أيضًا". انتباتني فورة مشاعر في تلك اللحظة جراء مدحها.

"تفضلي بالجلوس". قلت وأنا أزيح لها مقعدها، فكررت شكرها ثانيةً. وكان الرد أن أطرقت رأسها بابتسامة خافتة ثم نطقت "ميرسي".

والآن لنلقي نظرة على ذلك الموقف التافه البسيط الذي يبدو أنه لا يوحي بشيء، ولكن لنتأمل. إن فتاة كوردة، وبوصفها عارضة أزياء جميلة، تتلقى عشرات من عبارات المدح، والأرجح أنها لا تلتفت لها، وإن فعلت فإنها تكتفي بهزة من رأسها مستخفة ومتجاهلة المادح. أقول، ما معنى أن تتلقى مدحي خجلة، وأنه كما يتضح، أن الخجل علامة اهتمام بآراء الآخرين بنا، وها هي الآن تهتم برأيي، فما معنى هذا؟ إن هذا الأمر ليس لا شيء، حتى وإن كان شيئًا غير ذا خطر إلا أنه لا زال شيئًا، وهو أن تدري وردة بوجودي وتهتم به. وهكذا ففور إقراري بتلك الحقيقة -أن وردة تهتم لأمري- سرت في جسدي قشعريرة وبرودة مفاجئة، سرعان ما انجلت ليحل محلها شعور طاغٍ بالبهجة والجرأة، جعلاني أتدفق في حديثي معها بكل ثقة. قاطعتها بسؤالي في ظل انهماكها بتقطيع قطعة سكالوب مستعدة لالتهامها:

- "منذ متى وأنتِ تعملين عارضة أزياء؟".

أرخت شوكتها عن فمها لترد وقالت: "سنين طويلة". والتهمت شوكتها ثم أنزلتها بالطبق مردفة: "منذ لم تعد أمي قادرة على العمل بكامل طاقتها، أو بالأحرى منذ أن كف المعلنون عن الاستعانة بها لتصوير منتجاتهم، لقد كانت عارضة كذلك".

- "إذن، أنتِ عارضة بالفطرة! لقد فهمت سبب براعتكِ الآن".

"ماذا تعني ببراعتي؟" سألت مستوضحة فيما يشبه التجهم.

- "أعني.. لقد كنتِ مندمجة تمامًا بالعرض".

- "حسنًا، إن كان هذا ما تعنيه. هناك أوغاد بالفطرة، فلم لا أكون عارضة أزياء بالفطرة؟".

"أشعر بإهانة في حديثك!". قلت ونحن نتبادل الضحكات. وقبل أن تتسنى الفرصة للصمت عدت لسؤالها مجددًا: "وبمَ أفادتكِ تلك المهنة؟".

"لا شيء عدا المال". وعادت تفكر ساهمةً قبل أن تردف:

- "ولكن، لأصدقك القول، هناك مهارة حياتية هامة لولاها ما اكتسبتها. لقد علمتني ادعاء السعادة متى داهمني الحزن، وادعاء القوة متى انتابني الضعف، وفي بعض الأحيان كان ادعاء ذلك كافيًا لأشعر به حقيقيًا".

كان في نطق وردة لكلماتها الأخيرة شيئًا من لوعة وحزن، استغربت أن تكون حاملة له.

- "وفي أي أمر تحتاجين القوة؟ إن الجميلات مثلكِ ينفتح لهن كل شيء بلا قوة".

- "لهذا السبب بالضبط نحتاج للقوة أكثر من غيرنا".

- "لأي سببٍ؟ لأنكِ جميلة كثيرًا؟".

- "نعم، هذا ما قصدته. فالفتيات اللاتي يمتلكن مستوى طبيعي من الجمال يمكنهن تصديق أن أي فعل يقدمه رجل لهن يكون بدافع حب حقيقي، ولا حاجة للشك بأنه استغلال. أما الجميلات "كثيرًا" كما تقول، فإنهن يتعرضن لإغواءات يومية، وتملق لا حدود له. وبطبيعتنا كفتيات، فإننا نستطيب المدح ممن نحب، أما أن تتلقاه من كل من هب ودب فإن ذلك مثير للحيرة، ويدفعك للتساؤل ألف مرة عن دوافع المادح، والارتياب في حقيقة اهتمامه بأمرك. على من هن مثلي أن يمتلكن القوة والصمود لئلا يكونن فريسة لغريزة التملك لدى الرجال".

أخذت وقتًا أتفكر في كلام وردة وقد اتخذت فعلًا لا إراديًا بالبحلقة والصمت مستغربًا أن وردة بهذا الذكاء الذي يتيح لها قول ما قالت، ولكن عدلت من وضعيتي سريعًا مخافة أن تظن بي الاستخفاف بها.

- "ومتى تعرفين ذلك؟".

- "أعرف ماذا؟ أن الرجل لا يحبني حقيقة؟".

- "نعم".

- "لا أعلم. فقد وقعت فريسة لذلك الظن مرتين، ولكني أحاول جاهدة أن أتبين ذلك في المستقبل".

"آها، إذن تزوجتِ مرتين؟" سألت وكأنني لا أعرف.

"نعم، مرتين كاملتين!" وهممت بالكلام لكن وردة رفعت رأسها ولحقتني قبل الحديث: "أرجوك لا تقلها".

- "أقول ماذا؟".

- "أي حمار يترك أنثى مثلكِ وما شابه ذلك من كلام أحمق يقوله الرجال عند معرفتهم بذلك".

وجاهدت لقمع مفاجأتي مجددًا مما يتضح أمامي من سرعة بديهتها وذكائها المتقد وأنا أسأل نفسي: لمَ يمكن لإنسان يرزقه الله من واسع رزقه بتلك المخلوقة الساحرة أن يتخلى عنها؟

انقضت الأمسية وعدت إلى الفندق مرتميًا على الفراش وكأنني أفضي إليه بمشاعري المضطربة التي حملتها من لقاء تلك الليلة. فها أنا ذا كامدًا حزينًا لانتهاء الليلة بتلك السرعة، وها أنا قلقًا متلهفًا للقاء غد، وأعد الثواني والدقائق لمجيئه، ثم ها أنا سعيد طرب لأنني حظيت بمثل تلك الليلة البديعة مع من أحب. أن تلقي وردة بالًا لوجودي هو أمر يجعلني سعيدًا، أما أن تهتم لأمري إلى هذا الحد، فذلك إحساس يتخطى السعادة لحدود النشوة والثمالة والذي جعلني معه أستدعي الحديث بتفاصيله، وكأنني غارق في حلم هانئ أكرره عن إرادة مرة تلو الأخرى حتى لا أستفيق منه. لكن الفرق هنا هو أن استيقاظي من ذلك الحلم كان يعني مجيء اليوم الذي سأقابلها فيه مجددًا، ليسلمني حلم جميل إلى آخر. وهكذا باختصار كانت كل أيامي مع وردة.

كنا نتقابل أنا وهي في اليوم أربع مرات، الأولى كانت بمطعم الفندق حيث نتناول فطورنا بتمهل، مخططين لبرنامج باقي اليوم. والمرة الثانية كانت عند ذهابنا

للسباحة، فأتركها للنزول بالمسبح بينما أستلقي خارجه متعللًا بأني أخاف الماء، وفي حقيقة الأمر فإن ما منعني من النزول للماء هي مجموعة من الأسباب الوجيهة؛ فقد كنت خجلًا من إظهار كرشي عاريًا لها، كما أنني كنت أستمتع بالتلصص، من تحت نظارتي الشمسية، على جسدها وهو يلمع مبتلًا بفعل أشعة شمس الربيع. وأكثر ما أرعبني إن أقدمت على السباحة، هو أن يتسبب تيار ماء أو لعب عابث مع وردة، في انخلاع باروكتي، فأظهر لها بتلك الصلعة الأربعينية والأذن المطرقعة، وهو المظهر المرعب الكفيل بأن يجهز على أي أمل في أن تحبني.

وليسأل سائل: "ماذا لو أحبتك وردة على تلك الهيئة؟ هل ستخفي عنها مظهرك الحقيقي إلى الأبد؟". فأجيب عليه بأنه متى أحبتني وتأكدت من ذلك، فسوف أنكشف لها بإرادتي على حقيقتي، التي ستخفي قسوتها عنها مرآة الحب العمياء، دون أن ينتقص ذلك من مشاعرها ناحيتي.

بعد انقضاء فترة السباحة كنا نرتاح قليلًا، ونتقابل مجددًا وقت الغداء، الذي تفضل وردة أن لا تسرف به، لنترك لأنفسنا متسعًا للاستمتاع بطعام العشاء. وعند العشاء كان يبدأ يومنا الحقيقي. فينفتح كل منا على الآخر أكثر من ذي قبل، وتنكشف لي حقيقة وردة، لتنسف كل معتقد مسبق عنها. فكبرياؤها لم يكن سوى طبقة هلامية مصطنعة تحمي بها نفسها من المتطفلين، وشكي في مدى ذكائها اختفى أمام عقلها الراجح وآرائها المنطقية، وجمالها المادي لم يظهر جليًا عليها إلا من حيث انبعث جمالها الداخلي، ورقتها ووداعتها. وحتى ذلك السفور والجرأة بملابسها صار منطقيًا أكثر من ذي قبل. فإنه، وبحسب كلامها، كان يتعين عليها أن تهتم بما يجذب الرجل، وذلك لما رسخته بها أمها منذ صغرها من حاجتها لرجل تستند إليه في الحياة بعد وفاة والدها. وكان لتلك الفكرة أثرها في تقبل ذلك دون مشكلة أو مراجعة منها، وقد تغير ذلك إذ علمت أن فشل زيجاتها السابقة كان بسبب افتتان الرجال بجمالها الخارجي، الذي يهيئ لهم أنهم سيتزوجون ملاكًا دون نقيصة، وفور أن يتعرفوا عليها ليكتشفوا نقائصها كانوا ينفرون منها ويرحلون.

أما الآن، فقد تعلمت أن تخفت من بريقها الخارجي حتى تسمح لدواخلها أن

تظهر، فلا يهيم بها إلا من رأى حقيقتها وتقبلها. وقد كنت أتقبل كل ما بوردة، رغم ما يطولني من حياتها الأرستقراطية باهظة التكاليف التي تنغص فكري وتضطرني لأن أعيد الحسابات كل لحظة. إذ أنه مع تطور علاقتنا السريع صارت وردة أكثر تطلبًا دون حرج، فيكفي أن تلمح برغبتها في شيء حتى أشتريه أو أنفذه لها فورًا. فها هي تلمح بشراء هاتف جديد باهظ الزمن بدلًا من خاصتها الذي اعتراه القدم بعدما اشترته منذ ستة أشهر فقط، فلا يطلع النهار إلا وقد أهديته لها. ثم تطلب بعض الملابس ومساحيق التجميل، فنذهب للتسوق وأنا أشهد محفظتي تُستنزف من النقود، حتى أضطرها لإنهاء تسوقها محتجًا بالتعب والإرهاق. وتزيد بعد هذا أن تقترح عليّ السفر لميلان لحضور أسبوع الموضة، لأن ذلك كفيل أن يشعرها بسعادة جارفة تتمنى لو اختبرتها يومًا.

"كما سيمكنك الاستفادة من أحدث الصيحات لتطور مصنعك، وستكون رحلة لا يمكن نسيانها". قالت وردة وقد وافقت بلا تردد وعقلي ينفجر حسابًا لتلك الرحلة. وفي إحدي الليالي انتابت وردة رغبة في أن نتناول عشاءنا في مطعم على يخت بوسط البحر الأحمر، كانت مصاريف خدمته فقط تحتاج لشهرية موظف حكومي، أما الطعام فقد طلبت ما يزيد عن اثني عشر صنفًا من المقبلات ومختلف أصناف الأسماك والقشريات. ورأيتها هناك تتحول من كائن رقيق إلى وحش بحري يلتقم كل ما يقابله بتيار الماء.

"إنني أمر بظروف طارئة تجعلني نهمة، أرجوك لا تؤاخذني". قالت وردة مبررة. كدت أنفجر غيظًا حينها لأنني لم أستطع منعها عن مزيد من الأكل، لكن لما قالت ذلك هدأ روعي وأحسست برغبة طاغية لو أستطيع احتضانها الآن أو طلب كل قائمة الطعام لها. لكن ذلك لم يدم طويلًا، إذ عاد غضبي مستعرًا لما رأيت الحساب وقد تخطى عشرة آلاف جنيهًا دفعةً واحدة، ليجترف ما بمحفظتي من أموال دون أن يكفي ذلك لتغطية المبلغ المطلوب. انتحيت بالنادل جانبًا في صمت في محاولة للتفاوض معه في تأجيل بقية الحساب، ولما رفض ذلك كان عرضي الأخير عليه هو أن أرهن بطاقتي وساعتي المذهبة عنده لحين أعود إلى الفندق وأكمل له بقية حسابه.

في غضون ذلك كنت أنظر إلى وردة عطفًا أن تنهي ذلك الوضع المحرج بكامله وتدفع هي ما تبقى من حساب والذي يمكننا تسويته بالفندق بيننا فيما بعد. كنت أنتظر ذلك وأنا على علم بأنها تملك المال، ولكنها لم تتزحزح عن مقعدها رغم ذلك، حتى وافق النادل على إرتهان البطاقة والساعة عنده، فقامت من مقعدها لأوصلها للفندق.

"كنت بحاجة إلى صحبتك، لقد كانت ليلة جميلة". قالت ونحن في السيارة لتميل إليّ بجذعها وهي تحتضن يدي المتشبثة بمقود السيارة وتنظر إليّ نظرات احتسبتها حانية، ثم تترجل من السيارة لتدخل الفندق. كانت تنقضي الثانية بعد الثانية والدقيقة وراء الأخرى وأنا متسمر خلف المقود دون حراك، أحاول أن أفسر ما حدث، مشدوهًا بمدى ما فعلت، حتى كذبت نفسي مقنعًا إياها أن كل ذلك ما هو إلا وهم أتخيله أو أحداث اعتيادية من قِبل وردة، دون تمييز لي، أفسرها على نحو حالم وخاطئ. كانت فعلتها تلك كجبل ثلج يرتطم بالنيران، فما تنفك تعاند النيران الانطفاء مسببةً لجبل الثلج الذوبان السريع ليعجل ذلك من عملية انطفائها المحتومة. وقد انطفأ غضبي المصطلي لأقفز من سيارتي جامعًا المال عائدًا للمطعم لتسديده.

أنهيت الأمر وعدت لغرفتي مفترشًا الأرض مفرقًا المال المتبقي أمامي بادئًا العد: "عشرة آلاف، عشرون، خمسون، مائة، مائة وخمسون، مائة خمسة وسبعون ألفًا، مائتي ألف.. اللعنة، هذا كل ما تبقي من ثلاثمائة ألف؟".

قمت واثبًا وأنا أفتش كالمجنون عن أي قرش يختفي هنا أو هناك، لكن لم تكن النتيجة إلا مزيد من الملابس المبعثرة بالأرض. كان المال المتبقي يكفينا بالكاد لرحلة العودة مع الأخذ في الحسبان تكلفة رحلة ميلان الباهظة، وضرورة قطع باقي أيام الرحلة والعودة فورًا للقاهرة. شغلني هم إخبار وردة بذلك، وهم آخر، وهو كيفية تدبر المال لرحلة إيطاليا. فتعاملت مع أول همومي بأن ذهبت فورًا لغرفة وردة، لتفتح لي الباب وهي تطل بتيشيرت صيفي بنصف كم وبنطال بيتي مع شعر معقود. اعتذرت منها إن كنت قد أيقظتها، ثم أخبرتها في عجالة أننا علينا المغادرة غدًا لأمر قد طرأ بالعمل.

"آه! لا بأس. سأوضب حقيبتي إذن". قالت وهي تخفي خيبة أملها. رجعنا في اليوم التالي إلى القاهرة، ولم يكن في رجوعي إليها إلا عذاب متصل أتخبط فيه بين حقيقة مشاعر وردة ناحيتي، وإن كان يتوجب عليّ الاعتراف لها بما أنصفته من حقائق أم أتمادى فيها حتى أتيقن من حبها. كان مالي الذي ينضب سريعًا يشير إلى اقتراب النهاية المحتومة وانكشاف الأمر برمته لوردة إما اليوم أو غدًا. لكن ما أنا متيقن بشأنه هو أن وردة غير مستعدة اليوم لتقبل الأمر، وإذن، فلأحاول إرجاءه إلى ذلك الغد، عسى أن تقع معجزة الحب عما قريب.

وقد كنت على نية الإفصاح لوردة عن عدم قدرتي حاليًا على تحمل النفقات الباهظة لرحلة إيطاليا، ولكني لاحظت أنه بعد عودتنا للقاهرة قد بدأت تجافيني في المعاملة، حيث تهمل مكالماتي دون رد وإن ردت فتلاقيني بردود مقتضبة دون حماسة. ولما خشيت أن تبدأ علاقتنا في الفتور، فقد أنبأتها بالعكس من ذلك، وهو أنني مستعد لحجز رحلة ميلان الأسبوع المقبل، واعتذرت منها أنه لن يتسنى لنا إلا حضور أول يومين من أسبوع الموضة، حيث أن جدولي حافل بالأعمال.

- "حقًا تقول؟ هل أوضب حقيبتي إذن؟ آدم، إن ذلك كثير عليك".

"لا يمكنني تفويت فرصة لتحقيق ما تطلبينه. سأفعل ما بوسعي لتكون أيامنا هناك لا تُنسى". وبدأت وردة تلهج شكرًا على سخائي معها. انقطعت اتصالاتي عن وردة طيلة ذلك الأسبوع، خشية أن يزداد الطين بلة وأتورط في مغامرة أخرى من مغامراتها فاحشة التكلفة التي لا طاقة لي بها. وقد كانت أيامي عبارة عن متوالية حسابية يزداد فيها قلقي كل يوم بصورة مطردة، حيث انكب فوق أوراق الفلوسكاب وأخط بها الأرقام محاولًا التوصل لأنسب ميزانية. وقد تبين لي، بعد احتساب تكاليف تذاكر الرحلة وأوراقها الكثيرة، إضافةً إلى تكلفة الإقامة، وتذاكر العروض باهظة الثمن، أن هناك عجز ميزانية في الرحلة بما يقدر بخمسة عشر آلاف جنيهًا، أو على الأقل كان هذا عجزًا نابعًا من قلقي أن تنفلت الأمور منا هناك، ولذا فقد اتخذت حيطتي وبدأت في خطة تقشف لتوفير هذا المبلغ. فبدأت بتوفير أول جزء عندما نقلت أغراضي من فندق ب. إلى شقة ستون مترًا متهالكة بمصر القديمة، تضيق بي

أركانها العفنة، ولا يكاد يتسع باب حمامها لكرشي الذي امتط للأمام أكثر من ذي قبل خلال أيامي الماضية مع وردة. وعلى كلٍ، فقد كانت تكلفة إيجارها شهريًا ألف جنيهًا، مما يتناسب مع أوضاعي الحالية. كما ازدتُ إمعانًا في عملية التقشف، فقطعت إيجار السيارة وأرجعتها للمعرض وكذلك فقد بعت ساعتي المذهبة واتخذت ساعة أخرى مقلدة ماركة روليكس آملًا ألا تنتبه وردة لتقليدها الرخيص، وفي طريق العودة بعت بعض الملابس، ومن ضمنها بعض الأحذية والبذلة السوداء الفاخرة التي قابلت بها وردة أول مرة، فكان آخر الأمر أن اكتفيت بثلاث بذلات مع جزمتين لزوم الرحلة. وهكذا، فقد اكتملت الخطة المالية للرحلة كاملة، متأهبين لأن تقلع رحلتنا آخر الأسبوع.

وصلنا ميلان على إنذار من السماء بالمطر والذي سرعان ما تحقق، لنفتح مظلتينا ونسير مقرقعين بأحذيتنا على الأرصفة المبتلة. ولم يمهلنا ضيق الوقت فرصة للراحة إلا ساعة انتهزناها لنتناول طعامنا على عجالة ثم ننهض مستقلين مترو الأنفاق إلى حيث يُقام العرض في وسط المدينة. ولم نكن في حاجة لإرشادات اللافتات أن هذا هو المكان المُبتغَى، فقد كان يكفي المرء أن يرى تلك الأشكال والألوان من النسوة حسني الوجوه والقسمات وملابسهن المتباينة ما بين المعقول وأخرى غريبة شاذة ثم القبيح منها بشكل فج لا يصدقه عقل ولا يستسيغه ذوق راقٍ. وقد أفهمتني وردة أن هذه عينة قليلة مما نحن مقبلين على رؤيته من أمور أكثر غرابة، كما أوضحت لي بحماسة، أنه ليس من المهم هنا أن يكون اللباس لائقًا بقدر ما يكون محطًا للانتباه، حتى وإن كان بسبب قبحه، فذلك أدعى أن يلتفت المرء لمرتديه سارقًا لانتباهه.

- "كما لا يغرنك المظهر، فإن طقم كهذا يكلف ثمن بناية عندنا، إنها طريقة للتميز".

- "عمّن؟".

- "عن عامة الناس".

- "وإذن، لو لبس عامة الناس بشكل مقيت كهذا، ستكون الموضة القادمة هي اللبس بشكل محتشم وراقٍ؟".

- "بالضبط. إنها ليست إلا طريقة ليتميز بها أصفياء القوم عن البقية، فمتى قلد عامة الناس لباسهم رجعوا يبحثون عن طرق شاذة ليسموا بها عليهم".

كان يبدأ العرض الأول في قصر "ميلان الملكي"، وقد دلجنا من بهوه الفسيح، والذي يسمح لنا أن نرى من سمائه كاتدرائية "ميلان" تنتصب بأبراجها العاجية الشاهقة. ثم اتخذنا مقاعدنا في "صالة العذارى" داخل القصر والذي كان العرض بها قد بدأ، وحين هممت بالحديث لأشتكي من الكرسي الوطيء الجالس عليه، أشارت إليّ وردة بالسكوت وعادت لتركز انتباهها مع العرض. كان يغلف القاعة صمت متكلف رهيب، ويسكنها وجوه مصطنعة جامدة كما تماثيل الشمع، تنظر صوب عروض الدمى المرقعة بالمساحيق والتي تتحرك في رشاقة وخيلاء ناحيتهم مستعرضات ملابسهن الغريبة. تلبسني إحساس الرعب بدلًا من الانبهار، إذ كان يكفي أن أركز نظري في وجه إحداهن البض وبشرتها المشدودة لأتخيل أنها تمثال عاجي بأعين زجاجية لا حياة فيها، ولم يكن يعيدني للسكينة مجددًا إلا النظر لوجه وردة بجانبي لأدرك الفرق بين وجوه ميتة لا حياة فيها-حتى وإن كانت جميلة، ووجه آخر حي، يتأتى جماله مما يشوبه من عيوب وعدم استواء.

كان عرض مجموعة من الأزياء يأخذ ما بين نصف ساعة إلى ساعة وقد يطول عن ذلك أحيانًا، وما بين العرض والآخر هناك استراحة، لا تفعل بها وردة شيئًا غير الثرثرة واستحضار المعروضات مرة أخرى بالترتيب واحدًا تلو الأخر، مبينة لي رأيها في كل قطعة منهن وسر جمالها وجذابيتها، ثم تبدأ في سرد نوعية الأقمشة.

- "أما انتبهت لذلك الفستان الوردي؟ لقد ارتدته العارضة بالمقلوب عن قصد حتى يشد الانتباه ويجعلك تتساءل عن سر ارتداءه بتلك الطريقة وبالتالي تنتبه لتفاصيله ودار الأزياء صاحبته. لا، أبدًا. لا يعقل أنك لم تنتبه!".

ولا تطيق وردة ألا أنتبه لما يُعرض وتزيد في الحكي وتردف بحماسة:

- "أما هذا فهو فستان لمارلين مونرو من أحد أفلامها. إنه من الساتان الوردي المرصع بالمجوهرات. وتلك القفازات، لقد كانت ترتديها في الفيلم كذلك، لكنهم أضافوا لها تفاصيلًا لم تعجبني. اللون الوردي كان أجمل قبل أن يغيروه للأسود. يا

إلهي، ذلك الفستان الأخير. إنه فستان ملوكي من قماش التافتا. إن قماشة التافتا قد صُنعت خصيصًا للأميرات".

- "أتقصدين تلك القماشة المكرمشة التي عُرضت أخيرًا؟".

"مكرمشة!". ونظرت لي وردة نظرة شزراء كادت تلتهمني بها وهي تقطب حاجبيها في غرابة لولا أن استدركت خطأي الفادح قائلًا: "نعم، لا بد أنه قماش الأميرات. إنه بديع حقًا. لمعته براقة جدًا".

كان اليوم يسير بوتيرة بطيئة دون جديد بالنسبة لي، حيث عارضات تدخلن وتخرجن ملتحفات بأزياء مهرجين، ووردة لا تنفك تشرح لي السر الباتع خلف كل واحد منهم، وعن دار الأزياء ومدى عراقتها، وبينما أود القيام والهروب فتود وردة لو تلبث هنا عمرها كله، فلم نقم إلا حين انتهت كل العروض. وكان قد حل مساء ميلان رطبًا محملًا ببرودة قارصة، فلم تسنح لنا الفرصة للتنزه، فاتجهنا رأسًا إلى الفندق تصطك أجسادنا من البرد.

كان الوقت ينقضي في تؤدة فظيعة، أشعر معها باضطراب يقبض القلب وينخر به في صمت. اتهمت زورًا أجواء ميلان الضبابية السوداء بالتسبب في ذلك، لكن ما اتضح لي لحظة بعد الأخرى أنه قد آن الآوان للبوح بكل شيء لوردة، فلم يكن هناك فرصة للسكوت في حضرة ما يمور به صدري من مشاعر ملتهبة أكاد أتقيؤها، فعزمت أمري أن أفيض لها بها، وسيكون ذلك غدًا.

كان العرض التالي يُقام في قصر "موراندو"، ولأن وردة لم تشأ المخاطرة بالتأخير ولو دقيقة واحدة عن بداية العرض في ظل الظروف الجوية السيئة، فقد جاءتني مبكرًا توقظني للنزول، وشددت عليّ أنه لن يتسنى لنا تناول الفطور في الفندق، وإنما سنتناوله إن وصلنا إلى مكان العرض مبكرًا قبل وقت كافٍ من بدايته، وإن لم يكن ذلك، فنستطيع حينها تحمل الجوع حتى يحين وقت استراحة العرض فنأكل. ولما انتهيت من ارتداء الملابس شدتني وردة من يدي مهرولة نزولًا على السلالم وهي تبرر حماستها:

- "عرض اليوم هام جدًا، يا آدم. إن دار فيرزاتشي هي الحدث الرئيس به، وچيچي حديد كذلك ستكون حاضرة. لا وقت لنضيعه".

ومضت وردة تقرقع بخفة واحتراف بجزمتها ذات الكعب العالي على أرضية الفندق الرخامية، لافتة كل الأنظار إليها، حتى وصلت إلى التاكسي الذي يقلنا إلى هناك. كان وصولنا قبل موعد العرض بساعة، وكما اتفقنا فقد جلسنا على أحد المقاهي للفطور. كنا نتناول طعامنا في صمت وقد سكنت حماسة وردة فجأة، وأنا أنظر إليها من حين لآخر لأكتشف أنها لا تأكل شيئًا، وإنما تتظاهر بفعل ذلك.

- "لمَ لا تأكلين؟".

- "معدتي متعبة بعض الشيء".

سألتها إن كان ذلك بسبب طعام المدينة فأنكرت.

- "إذن، هو بسبب العرض، هل تفكرين به؟".

- "لا يبدو كذلك. ولمَ لا تأكل أنت؟ يبدو عليك التعب والتجهم منذ وصولنا، أذلك بسبب الرحلة؟".

- "لا، لكني مشغول بأمرٍ ما".

- "وما هو؟".

ولما سألتني وردة دار بخلدي أنها تشك فيما أنا مقبل على البوح به وفي مشاعري ناحيتها. أترى تكون وردة نصبت لي شباك الحب بينما أتوهم أني من أفعل ذلك؟ وعلى كلٍ، فإني لم أطق صبرًا وانطلقت منتهزًا الفرصة لأبوح لها بأمري.

- "وردة، انظري لي لو سمحتِ. حين تنظرين إليّ، ماذا ترين؟ هل أبدو لكِ كشخص آخر.. أعني، هل تصادفين في أمرٍ يجعلكِ تحدثي نفسكِ سرًا أنكِ لا تودين..."

وتوقفت حائرًا ما بين تخييرها إن كان هذا الأمر يجعلها تحبني أم لا. هزت وردة رأسها استفهامًا وطلبت مني أن أكمل، فعدت للحديث:

- "لقد قلتِ لي بالأمس أنكِ تحبين صحبتي. حسنًا، ماذا لو أنني وددت.. وددت صحبتكِ تلك إلى الأبد".

"نحن كذلك آدم، نحن أصدقاء". قالت وردة متغابية.

"ولكن ليس هذا قصدي. إن قصدي هو أنني أحبك، وأريد أن أكون بصحبتك دائمًا!". قلت ذلك بتعجل شديد جعلني من التوتر معه أن يعترض الطعام حلقي، فسعلت سعالًا حادًا اتخذت معه الفرصة لأن أراقب ردة فعل وردة. وجاء ردها سريعًا، فقد أبت من وداعتها إلا أن ترفض حبي رفضًا رقيقًا بقولها: "آدم، ألا تظن أنه من السريع قول ذلك؟ إننا لم نعرف بعضنا إلا من شهر!".

لتغشي عينيّ سحابة مظلمة وقد أعتمت الدنيا في قلبي، فلم أرَ منها إلا سوداها حتى تُجلي وردة بنفسها، وبرقتها البالغة، تلك السحابة عني، وذلك حين أمسكت يدي الباردتين وهي تسألني أن أفيق من غفوتي وأركز معها.

- "لاكن صادقة معك، إنني أشعر كذلك بأمر ما، وإنني على استعداد لقول أنه حب، لولا أنني اكتسبت من النضج ما يجبرني على التريث لأتأكد من حقيقة مشاعري، وإن ذلك لقريب".

كان ذلك رد وردة الذي أعاد لي بعضًا من هدوئي وقد انقشعت الغمامة، حتى ألفيتها تتمادى في تطييب خاطري مازحةً بقولها: "ولكني أنبهك لأمر، فإنه متى سلمت لأحدهم أمري وقلبي فقد صار هو شغلي الشاغل وهمي ومستندي في كل أمور الحياة. فإياك أن تكون ممن يتغيرون بعدما يمتلكون زمام الأمر ويركنوا لمودة وحب أحدهم".

قالت وردة وما توقعت أن الأمر سينتهي بمثل ذلك، إذ كان في ردها ما أزال عني الحرج وأطمعني بحبها أكثر من ذي قبل، فعدت صافي الذهن أكاد أقفز من الفرحة والحماسة. أنهينا حديثنا ثم قمنا لحضور العرض، وقد كان يومًا لا يُنسى، إذ استمتعت وردة بالعرض كثيرًا بينما كنت أتلذذ أنا بدنو الظفر بها.

انتهت رحلة ميلان وعدنا للقاهرة، وقد كانت العودة تعني مزيدًا من التوفير في

إنفاق الأموال وبالتالي مزيدًا من أيام الحب مع وردة. فتكلفة اليوم بميلان تكفينا للتنزه والاستمتاع بأرقى أماكن القاهرة لأسبوع ويزيد. ولم يكن يعنيني أين سنمضي الوقت إن كنا سنمضيه معًا، ولذا فقد تركت كل الترشيحات لوردة التي تبدلت تبدلًا كاملًا منذ عودتنا. فقد صارت أكثر ألفة وودًا، وعزلة! فتباعدت فترات لقاءنا عما هو متوقع، لنكتفي باللقاء مرة كل أسبوع، محتجةً في ذلك بحاجتها إلى بعض الوقت للتفكر في أمر علاقتنا. ومع ذلك فإنها لم تفوت الفرصة، لتنهال عليّ بعشرات الأماكن والاقتراحات التي يمكننا تنفيذها حين لقائنا كل أسبوع. ولم يكن أمام العبد فقير الإرادة إزاء حبها إلا أن يلبي لها كل الرغبات بل وأن يستبق لتلبيتها قبل أن تفصح عنها.

وكيف لا أفعل؟ أقول، وكيف أرفض لها طلبًا، مهما صعب تحقيقه، وهي من تمنحني بدفء وجودها سببي الوحيد للحياة في هذا العالم، وهي من أبذل نفسي في سبيل رضاها؟

وقد أصبحت وردة بعد كل هذا تقدر حبي لها وتضحياتي لأجلها، فازدادت فتنة على فتنة، وتغيرت تصرفاتها تجاهي على نحوٍ أكثر حنانًا وعطفًا، سامحةً لمشاعرها أن تتدفق دون حسبان غامرةً إياي بسعادة جارفة. ومع أن فترات ابتعادنا كانت تسوؤني، إلا أنها قد أطالت كذلك من لحظات سعادتنا ومكنت لها مزيدًا من العمر، ليمر الوقت وأزداد أملًا في أنه ربما قد تمخض الزمان أخيرًا عن حب وردة لي. وقد أحسست ذلك حين أسرت لي وردة يومًا بأنها عازمة على ترك العمل إن طلبت أنا منها ذلك، لتتفرغ للعناية بي والاهتمام بكل ما يخصنا. قالت ذلك في لهجة مازحة، مذكرةً إياي بما كان من كلامها أنه متى أحبت أحدهم فقد صار معتمدها في كل أمر.

ولما بدا لي أن حب وردة قد بدأ يستتب أموره، شرعت مجازفًا في سرقة حلاوة من شفتيها، وذلك حين كانت أول قبلة نتبادلها بعد شهرين من عودتنا. بادرت بها وردة في أثناء جلوسنا ليلًا في شرفة أحد فنادق القاهرة المطلة على الأهرامات. بادرت بها ولم تمانع وردة، وإنما اكتفت بأن افتر ثغرها عن ابتسامة مرتعشة من المفاجأة، وقد تضرج وجهها بحمرة الخجل، ثم ما انفكت أن استعادت رباطة جأشها

لترد عليّ وقد اعتراها الارتباك مجددًا:

- "أما كان ينبغي أن تطلب إذني أولًا؟".

- "أما كان ذلك سيفسد حلاوتها؟ ثم أنه...".

وما انتظرت أن استكمل قولي لتميل ناحيتي وهي تعترف لي اعترافًا صامتًا بالحب، وذلك حين قبلتني على حين غرة ضاحكة وهي تقول: "هكذا نتعادل". ومن بعد ذلك فقد كانت تنقضي بنا الأيام ولا نختبر من الزمان إلا سعادته، لأنه، أنا ووردة، وبروح حبنا الغامر، نستطيع أن نسرق كل حلاوة الزمان عنوة. وقد خيلت لي نشوة حبنا أنه لن ينتهي أبدًا، فإذا بي بعد شهر أتفاجأ أن أموالي قد نفدت كافة دون أن يتبقى شلن واحد، بل أصبحت مدينًا لمعرض السيارات بألف جنيه، وكذلك لم تكن معي أجرة الشقة، فبدأ صاحب البيت يهددني بالطرد وأمهلني شهرًا، فلم أملك إلا بيع هاتفي الحديث واستبداله بهاتف من طراز القديم، وكانت نتيجة ذلك أن انقطعت وسائل الاتصالات الحديثة مع وردة، ولم نعد نتحدث إلا عبر شبكات الاتصال متعللًا بعدم امتلاك الوقت الكافي لتفعيل شبكة الإنترنت.

Telegram:@mbooks90

ورحت أتهرب من مواعيد لقائنا وأتعلل مرة بعد أخرى حين يجيء موعد لقاءنا الأسبوعي بأنني مشغول بأعمالي، وتارةً أنني مسافر لخارج البلاد، حتى لم يعد التعذر والتخلف عن اللقاء ممكنًا بعد الآن، ليس فقط لأن إلحاح وردة يضطرني لهذا، بل لأنها قد تعرضت لحادث أثناء هبوطها للسلم أدى إلى انكسار قدمها، وعليه فإنني لم أكن فقط مجبرًا على لقائها، بل عليّ زيارتها ببيتها بالعتبة.

هالني الأمر لدرجة أنه لحظة أخبرتني بتلك المصيبة أطلقة صرخة مرعبة، ظنت وردة على إثرها أنني أصرخ لمصابها، وبالفعل فقد همني مصابها، لكن أكثر ما همني كان اضطراري لدخول المنطقة مجددًا. استبد بي القلق وصار صدغي يدق بشدة ويكاد ينفجر من الدم المتخبط بين أرجائه مفكرًا في طريقة أحمي بها نفسي من أن يكتشفني أحدهم. وقد يكون أحدهم هذا هو عزيزة أو أحد الأولاد فيكون الأمر يسيرًا ويكفي ألا أقترب من البيت هناك، ولكن كيف يمكنني التنكر من عشرات الأشخاص الذين يعرفونني بالمنطقة، والذين بالتأكيد قد علموا بفعلتي النكراء وبانتظار فقط أن

يلمحني أحدهم ليعيدني من يدي كالطفل الصغير إلى أمه زاعقًا في ألا أكرر فعلتي، ثم يأخذون في تلاوة بعض التعاويذ عليّ حتى تنفك لعنتي. بل بالتأكيد أنني من سألفق أمر اللعنة وأن إحداهن قد سحرتني بعمل شرير لتفرقني عن عائلتي، ولم تكن لي يد في تفادي خطوات الشيطان.

"كفى تفكيرًا. طيب، ماذا سيحدث إن لم أذهب؟ ستحزن وردة حزنًا عميقًا لأ أملك تعويضها عنه الآن مما يعني أنني من الممكن أن أفقدها للأبد! طيب، ماذا سيحدث إن ذهبت إلى هناك؟ يمكن أن لا يعرفني أحد إن أحكمت أمر التنكر والتخفي، ويمكن كذلك أن يتعرف عليّ أحدهم، وإن عرفني فستنتهي علاقتي بوردة لا محالة. ولكن هذه ستكون النتيجة إن لم أذهب كذلك. لذا، وعلى كل حال، عليّ أن أذهب".

كان هذا تفكيري الذي اهتديت بعده إلى إنه لا سبيل أمامي سوى إجادة التخفي والذهاب إلى منزل وردة بالعتبة. وقد قضيت ساعتين في عصر اليوم التالي أعبث بهيئتي التي سأتنكر بها، وفي النهاية قررت أنه لا هيئة للتنكر أفضل من شخصية آدم البرهوشي، وأن الأمر سيصبح أكثر إحكامًا إذا أضفت إليها بعض الرتوش مثل نظارة شمسية ضخمة، وصبغ اللحية بالأسود الفاحم بدلًا من لونها الأصفر الأصلي. وهكذا فعلت متوجهًا إلى بيت وردة.

وصلت إلى المنطقة في السادسة بعدما حل الظلام بقليل. كنت أزحف على رصيف الشارع، أجر ساقيّ المرتعشتين بشدة، وعيناي مثبتتان بنظارتهما الشمسية على الأفق أمامي فلا تبصران شيئًا إلا الفراغ الذي يسبق خطواتي، مما كاد أن يجعلني أفوت بيت وردة لولا أن انتبهت فرجعت أدراجي داخلًا البيت. وقفت متأهبًا أمام باب الشقة مبتلعًا ما يحيطني من هواء ثقيل مشبع بالاضطراب والرعب ثم أزفره مجددًا. خلعت نظارتي ثم تحسست الباروكة مثبتًا إياها على رأسي، خائفًا أن تكون قد تحركت من فوق صلعتي المتعرقة بسبب التوتر.

طرقتُ الباب أخيرًا لتطل من ورائه فتاة مراهقة في لباس صبياني مضحك، سألتني عن هويتي ثم نادت باسمي عاليًا لتسمعه وردة من الداخل آذنةً لي بالدخول، وحينها انخلع قلبي وودت لو قطعت لسان الفتاة قبل ذلك. دخلت نحو

غرفة وردة متمهلًا مترقبًا، وحسنًا فعلت، لأنه، وبالداخل، كانت تجلس إحدى نسوة المنطقة التي ربما تتعرف عليّ. تراجعت خطوتين قبل الدخول وتنحنحت وأنا أدير لها ظهري، لتنهض المرأة مستأذنة الخروج بينما أدخل الغرفة في إثرها. كانت وردة مستلقية على سريرها مع قدم مكسورة بارزة تحت الغطاء، وفور أن دخلت عدلت من وضعيتها زاحفة بجسدها للوراء مستندة بقذالها على مسند السرير. كانت عينيها تلمع لهفةً وشوقًا، فما أن اقتربت منها حتى اعتصرتني بحضنها، ولم تمهلني فرصة للحديث لتنهال عليّ بكلمات التقريع والتأنيب على غيابي عنها طوال تلك الفترة.

- "أكنت تنتظر مصيبة حتى نلتقي؟ أم تراك تصطنع الثقل عليّ بعدما سلمت لك أمري؟".

فاقتربت منها مجددًا ملثمًا جبهتها ثم أعطيت لها باقة صغيرة من الورود وأنا أهدهدها بالكلمات: "لا يمكنني حبيبتي! حمد الله على سلامتكِ. أواه، مسكينة! وكيف انكسرت قدمكِ يا ثُرى؟".

وبينما وردة تحكي كنت ألحظ الفتاة صاحبة اللباس الصبياني من بين ثنايا الضوء وهي تختلس النظر إلينا. أربكتني نظراتها المتفحصة فسألت وردة عمن تكون، لتفيدني بأنها إحدى فتيات المنطقة، وقد انتدبتها بعد تعرضها للحادث لتلبي لها احتياجاتها وتخدمها.

"نبيهة!" نادت وردة على الفتاة آمرة بأن تحضر العصير، لتأتي بعد لحظات قليلة وهي تحمل صينية عليها كأسين من العصير وكوب الماء. أنزلتها على الطاولة وهي تحدق فيّ، حتى أنها أعطت كأس العصير لوردة دون أن تزيح نظرها عني، لتسلمني كأسي مبتسمة نشوةً جراء اكتشاف خطير وهي تصيح "أنا أعرفك".

"ماذا؟" سألت وقد تجمدت أوصالي.

"- أنا أعرفك، لا أتوه عنك. لا أصدق أني أراك الآن".

نظر كلانا أنا ووردة إليها نظرة متوجسة منتظرين استكمالها، وبعدما نشفت عروقي من الدم كادت تنطلق باكتشافها، لكنها مسكت عن الحديث في آخر لحظة

ودققت النظر بوجهي وقالت: "لا. لا يمكن. إنك تشبهه جدًا فقط. إنه أصلع، ولكن شعرك كثيف على عكسه. أنت لست هو".

"بئسًا! هل تعرفني؟". قلت في نفسي سرًا وقد أخذ مني الاضطراب كل مأخذ حتى صرت لا أعرف ما أفعل، فانفلتت أعصابي فجأة لأزجر الفتاة بكل عنف وأنا أنحيها عني جانبًا وأسأل وردة أن تطردها لسوء أدبها. ونزلت وردة بعد قليل على طلبي وأمرت الفتاة أن تخرج من الشقة ولا تعود إلا بعد ساعة.

ولما هدأت أعصابي راح يتقدم بنا المساء في حديث لا ينقطع من وردة حول أيامها المنصرمة التي غبت بها، وعن حادثها الأليم الذي أدى لانكسار قدمها. ثم وكأنما برقت لها فكرة فانطلقت قائلة: "صحيح، فور أن أفك الجبس سنذهب لحفلة غنائية تحت سفح الأهرامات. سأفكه الأربعاء قبل الحفلة، سنحتفل بذلك".

هززت رأسي أي نعم، قبل أن تهمني فكرة أني جئت لها مستدينًا ثمن باقة الورد، وكان في هذا سببًا لأن أقرر أنه لا جدوى في مزيد من الصمت، لأنه ومن اليوم وإلى الأربعاء القادم لن يتكدس لديّ المال، وإنما بدلًا عنه سيتراكم لديّ مزيد من القلق والتفكير الممض والرعب من اللحظة الفارقة التي لن يزيدها الانتظار إلا مرارًا وبؤسًا. وعلى هذا عزمت على الإفضاء بكل شيء تؤًا. وقبل أن أشرع في الاعتراف ارتجفت في مكاني متخيلًا عدم رضا وردة عني وفراقها لي، لكني استجمعت شجاعتي لما تذكرت أنه لا مفر.

Telegram:@mbooks90

- "وردة..إنني بحاجة لأن اعترف لكِ بأمرٍ ما".

هزت رأسها استفهامًا مصغيةً لي حتى أكملت حديثي "إنني أريدكِ، أحتاجكِ بشدة للحياة بقدر حاجتي لنبضات قلبي. أنتِ تعلمين هذا، أليس كذلك؟ ماذا لو أخبرتكِ أن ذلك الوجه الوسيم الذي تنظرين إليه لا معنى له من غير تلك الباروكة؟".

وشددت الباروكة فجأة من على رأسي ناظرًا إلى وجهها المندهش والمحدق في صلعتي. وقبل أن أردف وأوضح حالتي، وجدتها فجأة تطلب مني الاقتراب، لتتحسس صلعتي بحنو ممررةً أصابعها الناعمة عليها وهي تدغدغني، ثم تنحني

عليها مقبلة إياها وهي تضحك وتقول: "إنها جميلة. أذلك ما يؤرقك للاعتراف لي به؟ لا بأس. الكثير يرتدي البواريك، ستصبح أجمل بصلعتك إن تركت معها لحيتك لتنمو".

- "حقًا تقولين؟ لا بأس لكِ بهذا؟".

- "لا، مطلقًا. إنك لا تزال جميلًا.. ستكون دائمًا. حتى أن... مهلًا، ما هذا؟ إنك صرت أصلعًا كمن أرادت نبيهة أن تصفه. ها ها. يا لعبث الصدف! ولكنها جميلة على كل حال".

لقد أتى الحب مفعوله! إنها لا ترى قدر بشاعة مظهري وقد أعماها الحب. فكرت في ذلك مشجعًا نفسي على المضي قدمًا في الاعتراف.

- "عزيزتي، وردة، لا يوجد من هو أحلى منكِ، أقسم على ذلك. ولكن مع ذلك عليّ الاعتراف لكِ بأمرٍ آخر. أنني لا أملك سيارة فعليًا. نعم، كل السيارات التي ركبناها كانت إيجارًا".

- "لا بأس بهذا كذلك. لا بد أن سفرك الكثير يمنع تنقلك الدائم بواحدة".

ولا تنفك وردة تزيد بردودها من تشجيعها لي على المضي أكثر فأكثر: "وذلك أيضًا، ذلك الهاتف الصغير لا أملك غيره الآن. لقد بعت الآخر ولهذا لم أستطع التواصل معك الفترة الأخيرة".

- "أوه، عزيزي! أتراك تمر بظروف صعبة؟ يمكنك إخباري".

- "نعم، نعم. أمر بظروف صعبة جدًا. المال شحيح لدي".

صمتت هنيهة وقد امتقع لونها مما سمعت ثم سألت: "أذلك بسبب الظروف الاقتصادية التي نمر بها؟ هل أودعت كل أموالك في البنوك؟".

- "لا، إنني لا أملكه من الأصل. ذلك ما كنت بصدد الاعتراف لك به"

بدت وردة مشدوهة وغير مستوعبة لما أقول، حتى تحركت شفتاها ببطء وهي تمط بين الكلام: "ماذا تعني.. بأنك.. لا تملك الأموال؟ هل أفلست؟".

- "لقد أفلست، بددت كل ما معي".

- "آدم، أرجوك لا تعبث معي. لا بد أنك تهزأ بي!"

- "إني أصدقكِ القول. إنني مفلس تمامًا".

- "ومصنع الملابس؟ أين ذهبت أموالك وأعمالك في طرفة عين هكذا؟ أنا لا أفهم شيئًا. إن مزاحك ثقيل".

- "إنني لا أمزح، لم يكن هناك مصنعًا من الأصل". قلت منكس الرأس متحاشيًا نظراتها.

وعلى إثر قولي بدأت وردة تتراجع وتنكمش على نفسها ناظرة إلى باب الغرفة برعب شديد وهي تغمغم دون أن أتبين من همهماتها إلا سؤالها لي:

- "من أنت؟ ماذا تكون؟".

- "إنني كاذب. لقد أوردت عليكِ كذبًا أكثر مما تتحملين. لكِ كل الحق في أن ترتابي بي، ولكنني لا أكذب إن قلت أنني ما فعلت كل ذلك إلا لحبكِ، ولأنعم بقربكِ فقط".

"من تكون؟" أصرت على سؤالها وهي تجز على أسنانها غضبًا وتهديدًا بأنها على شفا الصراخ وفضحي.

- "إنني في الأساس جارًا لكِ، لقد عشت هنا بجانبكِ سنوات. اسمي هو آدم بالفعل".

- "كيف؟ لم أرك يومًا بالمنطقة!".

- "بلى، رأيتيني. ولكن لم أنل شرف ملاحظتك لوجودي يومًا، وإني على يقين أنه لم يكن لتلاحظينني أبدًا إلا إذا فعلت ما فعلت. لقد تخليت عن حياتي، وأنفقت كل ما جنيته يومًا لتلاحظينني".

وانتحت ببصرها عني بعض الوقت ثم قالت وكأنها اكتشفت الأمر بعد جهد: "الفتاة إذًا كانت على حق؟ إنها تعرفك؟".

ولبثت صامتًا لا أدري ردًا، ومضت مزيد من لحظات الصمت المدوي، وقدم وردة تهتز في عنف وكأنها تحاول تحريكها دون فائدة، ولما يئست نادتني أن أقترب، لتصفعني بجميع إراداتها الغاضبة وهي ترتج بكاءً. لحظات أخرى ولا شيء سوي نشيج صامت، انقطع فجأة على صراخ لوردة:

- "والآن؟ الآن ماذا يتبقى بعد أن أحببتك؟ إنك خسيس. لقد تخليت عن حياتي لأجلك. كيف يمكن لي أن أستند على كاذب مفلس؟".

هممت أن أرد لكن كان سيل الكلمات يتدفق من وردة سريعًا كمذياع مندفع يرفض الانطفاء: "كيف لك أن تخدع أحدهم بهيئة ليحبك ثم تكون على هيئة أخرى مغايرة؟".

- "أتقصدين الباروكة؟ لن أتخلى عنها أبدًا. معكِ حق، إنني قبيح بدونها".

ثم أخذتها من جانبها لأثبتها على رأسي مجددًا قبل أن تنفلت من عليها بعدما تشبعت صلعتي بعرق التوتر.

"أي باروكة؟ إنك معدم وكاذب فاجر". ثم قالت وكأنها تستأنف جملتها "وغبي!".

"يمكننا سويًا أن نكون أغنياء مجددًا، لقد كنت غنيًا فيما قبل وأملك أعمالًا بالفعل. أحتاجكِ فقط بجانبي". حاولت مواساتها بينما أقترب من سريرها حذرًا، لأجثو على ركبتي منتحبًا وأنا أضم يديها وأشبعهما تقبيلًا:

- "وردة، أرجوكِ. لا حياة لي بدونكِ. إن كنتِ أحببتيني يومًا بصدق فلا تتخلي عني. الأموال؟ تبًا لها. يمكنني تحمل المسؤولية، لا تقلقي. لقد تحملت مسؤولية حبنا. خمسة عشر عامًا، خمسة عشر عامًا أحمله بداخلي وأطعمه جنينًا وأدخر كل جهد ومال حتى أصل إليكِ. أتحسبين أني أعترف لكِ لأخلص نفسي من ذنبٍ ما؟ لا، لا أعترف لك لتخليص نفسي من دنس الكذب، فلو كان ذلك الكذب هو وسيلتي للوصول إليكِ لأصبح أطهر لدي من الصدق، إنني أعترف لكِ لنعيش بحقيقتنا سويًا للأبد. عزيزتي، أرجوكِ أن تردي عليّ! أما يكفيكِ ما فعلته لأجلكِ؟ أما يكفيكِ أن يحبكِ أحدهم لهذا الحد لأن تطمئني وتهنأي للعيش معه للأبد قريرة العين؟ أن لا

يعبأ بحياته كاملةً، فيضحي بثمرة شقائه بها من أموال وعائلة وراحة، أن يفعل كل ذلك لأجلكِ؟ إنني أحبكِ، أقدسكِ، يا وردتي الوحيدة.. إني حقًا أفعل، أهذا أيضًا لا يكفيكِ؟".

وانتزعت وردة يديها من بين كفي نافضةً يدي بعنف وهي تقول صراحةً:

- "لا، لا يكفي الحب! بئس ما قررت حين تخليت عن كل شيء وعن عملي لأجلك، إنك وما تطلبه مني هو أن أهوي معك لقاع البؤس. يكفيك أنت أن تكون فيه وحيدًا جزاء ما اقترفت من كذب".

وألفينا في أثناء حديثنا الفتاة الصغيرة تصعد مرة أخرى وتقف متفرجة علينا، وقبل أن تأمرها وردة بالخروج علا صوت الفتاة صياحًا وصراخًا وهي تشير ناحيتي: "إنه هو، إنه هو. لقد رجع من الخطف. إنها أذنه وصلعته يا صفية!".

وقبل أن أتبادل نظرات الدهشة مع وردة كانت الفتاة تخرج من الشقة ركضًا لتهبط، وأنا في أثناء ذلك يسمر الخوف قدماي ويصفد بلساني فلا أستطيع حديثًا ولا أملك إلا أن تدور عيناي رعبًا بين الباب ووردة، ولم أدرك ما يحدث حتى صعدت الفتاة مجددًا وقد ارتسم على محياها كل مشاعر الحماس، وهي تشبك يدها في يد فتاة أخرى يرتسم على وجهها كل أمارات الدهشة والرعب. فما لبثت أن تلاقت أعيننا في شرر صامت، حتى انفكت ملامح وجهها المرتعبة وحل مكانه الانشراح والفرحة، لينكسر الصمت على صوتها الباكي المنتحب: "بابا!".

"صفية!" قلت في نفسي مبهوتًا من رؤية ابنتي واقفة أمامي.

- "من بابا؟ ماذا تقصد تلك الفتاة يا آدم؟ من هذه الفتاة؟".

لم أولِ انتباهي لسؤال وردة، ولم يعدُ رد فعلي على كل ما يدور حولي إلا أن انفلتت الباروكة من يدي لتسقط أرضًا. كانت رأسي تدور من الدوخة، وعيناي تزوغان فتطوف بي أرض الغرفة ولا أرى من أشيائها وأشخاصها إلا غباشًا، ومن حولي تختلط الصرخات ما بين رغبة وردة في تفسيري للأمر لها وما بين ابنتي التي تملأ الدنيا ضجيجًا بعثورها عليّ وهي تصيح "بابا" منتظرة مني الرد. وأي جواب أستطيع

أن أنطق به في هذه الحال، وأي عقل يستطيع ترتيب جملة واحدة بينما يستبد به الفزع والشقاء الرهيب!

استفقت على يد صغيرة باردة كالثلج تتشبث بجميع أصابعها النحيلة في إصبع وحيد من يدي، ولا تلبث أن تزيد تشبثًا بإصبعي مطوقة إياه بيدها الأخرى محكمة القبض عليه، مخافة أن أفلت منها مجددًا. كانت ابنتي تشدني للخارج وهي تلهث، بينما أنجر وراءها طائعًا كطفل صغير لا يستطيع أن يحاجج مرشده في أين يذهب. وفي أثناء خروجنا من الغرفة عطفت إلى وردة بنظرة أخيرة، لأجدها مستكينة شامخة بسريرها وقد خمدت ثورتها. لم يكن بوجهها أية علامة تشي بما تشعر به، ولم أتمالك أن أتفحص عينيها الملونتين وهما تلمعان في الظلام الذي يزحف لابتلاع مرآها الأخير عني. وإنما يأبى على قلبي الاستسلام عن حب وردة بمثل تلك سهولة فأحاول العودة مجددًا بعد الخروج، لكن طفلتي تزداد تشبثًا بي ونحن نهبط السلالم.

"بابا، لقد اشتقنا لك". قالت بصوت محموم عليل لم أملك معه إلا أن أنقاد لرغبتها لنهبط الشارع. وبعدما هبطنا راحت طفلتي تلثمني أينما استطاعت. نظرت لها ودموع سخينة تسيل على خدي. أيمكن للرب أن يخلق آباء مثلي، ملاعين وشياطين، لطفلة ما أتت للحياة إلا لتنعم بحبه ورعايته؟ وأنى لي ضمان أنني سأتوب ولا أعود لعبثي مجددًا؟ وما يضمن لي أن تتوقف إغواءات الشيطان عني؟ لا شيء يضمن ذلك عدا انمحائي كليةً من الحياة.

وقبل أن تعرج بنا ابنتي إلى البيت استوقفتني تلك الأفكار، فأوقفت سيرنا ونظرت إلى طفلتي أطلب منها أن ترفع عينها إليّ.

- "طفلتي..إنني أحبكِ. حينما تكبرين يمكنكِ أن تصبي عليّ جميع لعناتك مثلما فعلت مع والدي، ولكن لتعلمي أنني أحبكِ، ها؟ ولأجل ذلك سامحيني. اذهبي للمنزل الآن، سآتي من وراءك. وإياكِ أن تصرخي!".

نظرت إليّ بعيونها الضارعة ومالت بخدها المتلظي بحرارة الحمى على يدي وسألتني: "بابا، أين تذهب؟".

"سآتي مجددًا. خذي، خذي". وركعت ألثمها مفرغًا لها كل ما بجيوبي من مال متبقٍ: "اذهبي الآن لشراء الحلوى، سآتي، لا تقلقي".

استكانت طفلتي أخيرًا، وراحت تلثم يدي، أنفي، شفتاي وجبهتي، ثم أرخت قبضتها عن يدي سامحةً لي بالتحرر بينما ركضت منها خارجًا من المنطقة. في الفجر، كنت قد وصلت إلى قرية مجهولة، وجدت بها حدائق شاسعة من النخيل. وهناك، حيث لا أحد، لم أدرِ بما أفعل، ولكنني نزلت على الأرض أنبش التربة كالمسعور بأظافري لساعات، حتى حفرت بها حفرةً صغيرة تشبه القبر. ارتميت بجسدي في جوفها، مضطجعًا على جانبي، ضامًا ركبتيّ نحو صدري، حاضنًا لهما بيدي. كانت تنسدل عيناي من فرط الإنهاك، وبينما أغمضهما كانت تتراءي لي أمي، ما بين أحضاني، مضطجعة أمامي بذات الوضعية وعيناها مفتوحتان في دفء وهدوء، في غفلة من وحشة الموت، بينما أتأمل بهما حياتي المفقودة. وإذ كانت تلك المرة الوحيد التي تشبع فيها قلبي بالسكينة والألفة وأحسست باكتمال قلبي أخيرًا، فقد نمت في ذلك القبر لأيام، أو هكذا خيلت لي نفسي جراء سكينة لم تحظَ بها من قبل!

أهكذا يشعر المرء في وجود أمه؟ أهكذا تفيض نفسه طمأنينةً أنه لن يمسه ضر ولا وحشة أبدًا؟ آه لو كان بإمكاني أن أدفن نفسي هنا للأبد وأهيل عليها التراب حتى ألقاها للأبد، لكنت فعلت ذلك دون تردد. فعلى كل حال، لقد فُطرت روحي دون رجعة ولا سبيل إلى استردادها.

أنى لي سبيل إلى الحب مجددًا بروح هامدة لا حياة فيها؟

وتساءلت في نفسي: لماذا أعي، ولماذا أدرك كل ذلك، ولماذا لم ينبت لي الله قلبًا كاملًا، لا يحتاج لآخر ليكمله؟

فمن بين كل شقاءات الدنيا لا يوجد بها ما يعادل هكذا شقاء، فإذا ما سألت المعدة الطعام أكلت، وإذا ما سأل الفم الماء شرب، وإذا ما سأل الجسد وجهة أو هدفًا تحرك نحوه، أما إذا ما سأل القلب حبًا فليس له جواب إلا مكابدة العذاب والشقاء.

ألا ما أغرب أن أكون قد بُعثت إلى الحياة، باحثًا عن الحب بها، بينما لم يكن

متواجدًا إلا في اللحظة التي سبقت انبعاثي إليها! ألا ما أسخف تحابيك الحب!

Telegram:@mbooks90